

نصوص معاصرة

فصلية تعنى بالفكر الديني المعاصر
العدد الثامن والعشرون، السنة السابعة،
خريف ٢٠١٢م، ١٤٣٣هـ

البطاقة وشروط النشر

- ◀ نصوص معاصرة، مجلة فصلية تعنى - فقط - بترجمة النتاج الفكري الإسلامي إلى القارئ العربي.
- ◀ ترحب المجلة بمساهمات الباحثين في مجالات الفكر الإسلامي المعاصر، والتاريخ، والأدب، والتراث، ومراجعات الكتب، والمناقشات.
- ◀ يشترط في المادة المرسلة أن تلتزم بأصول البحث العلمي على مختلف المستويات: المنهج، المنهجية، التوثيق، وأن لا تكون قد نُشرت أو أُرسِلت للنشر في كتاب أو دورية عربية أخرى.
- ◀ تخضع المادة المرسلة لمراجعة هيئة التحرير، ولا تعاد إلى صاحبها، نُشرت أم لم تنشر.
- ◀ للمجلة حق إعادة نشر المواد المنشورة، منفصلة أو ضمن كتاب.
- ◀ ما تنشره المجلة لا يعبر بالضرورة عن وجهة نظرها.
- ◀ يخضع ترتيب المواد المنشورة لاعتبارات فنية بحتة.

رئيس التحرير

حيدر حب الله

مدير التحرير

محمد عباس دهيني

المدير العام

علي باقر الموسى

الهيئة الاستشارية (أبجدياً)

زكي الميـلاد السـعوديـة

عبد الجبار الرفاعي العـراق

كامل الهاشمي البـحـرين

محمد حسن الأمين لـبـنـان

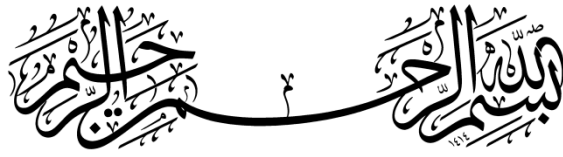
محمد خير قنبر باش أوغلو تـركـيـا

محمد سليم العوا مـصـر

محمد علي آذر شـبـا إـيـران

تنفيذ وإخراج

papyrus



فصلية فكرية تُعنى بالفكر الديني المعاصر

□ المراسلات

لبنان - بيروت - ص. ب: ٣٢٧ / ٢٥

www.nosos.net

البريد الإلكتروني: info@nosos.net

□ التنفيذ الطباعي ومركز النشر:

مؤسسة دلتا للطباعة والنشر، لبنان - الحدث. قرب مستشفى السان تريز. مفرق ملحمة كساب. خلف
المركز الثقافي اللبناني - بناية عبد الكريم وعطية - تلفاكس: ٠٠٩٦١٥٤٦٤٥٢٠
البريد الإلكتروني: deltapress@terra.net.lb

□ وكلاء التوزيع

- ◆ لبنان: شركة الناشرون لتوزيع الصحف والمطبوعات، بيروت، المشرفية، مقابل وزارة العمل، سنتر
فضل الله، طء، ص. ب: ١٨٤/٢٥، هاتف: ٢٧٧٠٨٨/٢٧٧٠٠٧ (+٩٦١١).
- ◆ مملكة البحرين: شركة دار الوسط للنشر والتوزيع، هاتف: ١٧٥٩٦٩٦٩ (+٩٧٣).
- ◆ جمهورية مصر العربية: مؤسسة الأهرام، القاهرة، شارع الجلاء، هاتف: ٢٦٦٥٣٩٤.
- ◆ الإمارات العربية المتحدة: دار الحكمة، دبي، هاتف: ٢٦٦٥٣٩٤.
- ◆ المغرب: (سبريس) الشركة العربية الإفريقية للتوزيع والنشر والصحافة، الدار البيضاء، ٧٠ زنقة
سجلماصة.
- ◆ العراق: مكتبة أهل البيت، بغداد (الكاظمية)؛ مكتبة الزهراء، البصرة، سوق العشار؛ مكتبة الفدير،
النجف، سوق الحويش.
- ◆ سوريا: مكتبة دار الحسين، دمشق، السيدة زينب، الشارع العام، هاتف: ٩٣٢٨٧٠٤٣٥ (+٩٦٣).
- ◆ إيران: مكتبة پارسا، قم، خیابان إرم، سوق القدس، الطابق الأرضي، ت: ٧٨٣٢١٨٦ (+٩٨٢٥١)؛
ومكتبة الهاشمي، قم، كذرخان، هاتف: ٧٧٤٣٥٤٣ (+٩٨٢٥١)؛ ودفتر تبليغات «بوستان كتاب»،
قم، چهار راه شهدا، هاتف: ٧٧٤٢١٥٥ (+٩٨٢٥١).
- ◆ تونس: دار الزهراء للتوزيع والنشر، تونس العاصمة، هاتف: ٠٠٢١٦٩٨٣٤٣٨٢١ (+٠٢١٦٩٨٣٤٣٨٢١).
- ◆ شبكة الإنترنت، مكتبة النيل والفرات: <http://www.neelwafurat.com>
- ◆ المكتبة الإلكترونية العربية على الإنترنت: <http://www.arabicebook.com>
- ◆ بريطانيا وأوروبا، دار الحكمة للطباعة والنشر والتوزيع: United Kingdom
London NW1 1HJ. Chalton Street 88. Tel: (+4420) 73834037.

محتويات

العدد الثامن والعشرين، خريف ٢٠١٢م، ١٤٣٣هـ

التغيير المجتمعي: مراحل ومعالجه وأدبياته، مطالعة في ضوء القرآن الكريم /
الحلقة الثالثة

حيدر حبّ الله ٥

ملف العدد: الإمام الصدر ومشاريع النهضة في الفكر الإسلامي /٢/

جولة في رحاب السيد الصدر ومدرسته العلميّة

حوار مع: د. الشيخ علي رضا أعرافي ٩

نظريّة الصدر حول السنن التاريخيّة في القرآن، قراءة نقديّة

السيد ضياء الدين مير محمدي ٢١

الشهيد محمد باقر الصدر رائد المشروع الوحدويّ

د. محمد صادق مزيناني ٤٣

العقل الدامي، جولة في المدرسة الفكرية للشهيد الصدر / القسم الثاني

أ. محمد رضا الحكيمي ٧١

(اقتصادنا) والمنهج النقديّ للمذاهب الاقتصاديّة، قراءة موجزة

د. محمد جداري عالي ٩٣

دراسات

آليات الوحدة الإسلامية في نهج أئمة الشيعة

د. علي آقا نوري ٩٧

- وقفاتٌ نقديةٌ مع قضايا فلسفية وعرفانية، مداخلةٌ مع العلامة السبحاني
السيد محسن طيب نيا ١٢٥
- جابر بن حيّان، دراسةٌ مختلفةٌ في شخصيته وتراثه / القسم الأول
الشيخ جويّا جهانبخش ١٤٢
- الدراسات القرآنية في ظل اللسانيات المعرفية، قراءةٌ جديدة
د. الشيخ علي رضا قائمي نيا ١٧٢
- الاتجاهات الفكرية في إيران، تيار أكاديمية العلوم الإسلامية
د. الشيخ عبد الحسين خسروناه ١٩٢
- نظرية التسامح، إشكاليات في المبادئ الفكرية والتأثيرات العملية
د. الشيخ علي أكبر نوائي ٢١٦
- صلح الإمام الحسين عليه السلام، بين المنطق الحسنّي والعمل الحسيني
أ. عماد الدين باقي ٢٣٨
- ظاهرة تكاثر مقامات أولاد الأئمة، دراسة في أبناء الأئمة الحقيقيين في إيران
السيد حسن شريف ٢٥١

قراءات

- (سابينه شميته)، مطالعة في أعمالها حول التشيع والاعتزال
د. حسين منّقي ٢٦٥

التغيير المجتمعي: مراحل ومعاله وأديياته

مطالعة في ضوء القرآن الكريم

. الحلقة الثالثة .

حيدر حبّ الله

بعد أن تحدّثنا عن بعض ميزات المرحلة المكية نَرجّ بنحو الاختصار أيضاً على المرحلة المدنية. ولها ميزاتها وخصائصها، وأبرزها:

١. فرض منطق القوة وإيجاد التوازن: فعندما ينتقل المؤمنون إلى المرحلة المدنية في التغيير فإنّ عليهم أن يفرضوا قواعد جديدة للعبة، وهي القائمة على منطق توازن القوى. إنّ القوة معيارٌ رئيس هنا. فالحق لا ينتصر بحقيته فقط، بل يحتاج إلى القوة كي تشكّل ضماناً له وحماية، وإلا انهار تحت أقدام الآخرين، ومن هنا فرض في الإسلام الجهاد تعبيراً عن منطق فرض التوازن وحماية الجماعة، وجاءت الأوامر بالغلظة مع الكافرين؛ لأنّ الكافرين هم رمز الاعتداء والعدوان على الدعوة الإسلامية؛ حيث حاصروها منذ انطلاقتها، وأعملوا كلّ وسائل القتل والتشريد، ومصادرة الأموال، وتسقيط الأشخاص، وتآليب الناس على الداعين إلى الله تعالى. إنّ الكفر في المنطق المدنيّ تعبيرٌ عن الآخر الذي يقف في المواجهة، وليس فقط تعبيراً عن اعتقاد أو وجهة نظر، وهذا هو واقع الكافرين في المرحلة المدنية. والانحراف الفكريّ عندما يحارب حركة الهداية والرشاد يصبح معادياً، ويخرج عن كونه مجرد وجهة نظر، فيحتاج إلى القوة التي تردعه، وليس فقط إلى الحوار الفكريّ الذي يقنعه.

من هنا نجد قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَرِ

رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ» (الفتح: ٢٩)، والشدة على الكفار تعني الشدة على كفار المواجهة والحرب، وإلا فإن الله يقول: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ (الممتحنة: ٨)، فإن البرّ هنا ضرب من الرحمة. ولا تنافي بين الآيتين الكريمتين، حتّى يدعى نسخ الثانية، كما قال بعض المفسرين وعلماء القرآنيات؛ لأنّ الكافر في جملة من النصوص القرآنية هو ما أسمّيه (كافر المواجهة)، وليس (كافر المعتقد). ولا أريد أن أدخل في ثنایا البحث التفسيري والقرآني هنا، وإنما أكتفي بإيجاز وجهة نظري هذه.

(فكافر المواجهة) يستحقّ الغلظة، ولا يستحقّ الرحمة، ولهذا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِّمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة: ١٢٣). فالغلظة ضرورة ضدّ من يستخدمها ضدّك؛ حتّى يقف عند حدّه، وكذلك الشدة والحزم.

ومن هنا ذهبت الآيات القرآنية إلى تأسيس منطق القوة؛ بهدف إيجاد التوازن والردع والمنع، المعبر عنه في القرآن الكريم بإيجاد الرهبة، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (الأنفال: ٦٠). إنّ منطق القوة هو منطق أن يخشاك الآخر، فلا يعتدي عليك، ولا يفكر في التطاول على دينك ومقدّساتك وذاتك وأمتك. ومن هنا يلتقي (مبدأ الإعداد والاستعداد)، وهو أحد مبادئ المرحلة المدنية، بمبدأ (القوة)، الذي هو مبدأ آخر؛ ليكون الأوّل محققاً للثاني، وليكون هدفهما مبدأ ثالثاً، هو مبدأ (التوازن وحماية الجماعة المؤمنة من العدوان، وحفظ الدين، وتأمين مسيرته).

٢. مبدأ (حبّ الجهاد والمواجهة) أو مبدأ (حبّ التضحية): وهما من أعظم المبادئ في الفترة المدنية؛ لأنّ حركة الدعوة والهداية في هذه المرحلة لا يكفي فيها أن تجاهد ولو بالإلزام، بل المطلوب صناعة حالة الحبّ والعشق للتضحية ونكران الذات. إنّ هذا جزء من عقيدة المواجهة في منطق القوة الإسلامي، قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ

فَتَرْبِصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ (التوبة: ٢٤).

فالجهد والمواجهة ناتجان في التربية الدينية عن عشق الله وحبّه وحبّ رسوله، وعن عشق التضحية في سبيلهما، وليس ناتجين عن مصالح أخرى، فكلّ المصالح الدنيوية عند الإصلاحي والتغييرى تصبح لا شيء في سبيل مصلحة القيم والمبادئ التي يؤمن بها. ولهذا ركزت نصوص القرآن الكريم على خطورة أن يتحوّل الجهد في عالم مقاصده من ساحة للعشق الإلهي وتفضيل الآخرة على الدنيا إلى ساحة لطلب الدنيا نفسها، فيحصل تحوّل في المفهوم والظاهرة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لِيُبْتَغِيَ فَبِإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ۖ وَلَكِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لِيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ۖ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ (النساء: ٧٢ - ٧٤). إنّ هذه الآية الكريمة تريد أن تحصر القتال تقريباً بأولئك الذين يبيعون الدنيا مقابل أن يحظوا بالآخرة، هؤلاء هم الذين ينبغي أن يقاتلوا، لا أولئك الذين إنما يقاتلون لأجل الغنائم وتحصيل المكاسب الدنيوية.

وهكذا تجد في حركة الإصلاح والتغيير بعض الأشخاص الوصوليين الانتهازيين الذين يريدون أن ينضموا إلى المسيرة بهدف تحقيق بعض المكاسب التي يجدونها عند هذا الفريق، ولا سيما عندما يلاحظون تقدّم هذا الفريق في مواقع القوة وتحقيقه بعض المنجزات، ولهذا لم يساو القرآن الكريم بين أنواع المقاتلين أنفسهم، فضلاً عن عدم مساواته بين القاعدين والمجاهدين، فقال عزّ من قائل: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِن بَعْدِ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (الحديد: ١٠).

هذه الآية الكريمة تؤكد أنّ المقام الأسمى يكون لأولئك الذين واجهوا وتحملوا في مواقع الشدة؛ لأنّ هذا العنصر يكشف عن درجة إيمانية عالية عندهم وجهاً حقيقي مخلص، حيث لم يكن يرجو صاحبه شيئاً وهم القلة الضعيفة، أما بعد الفتح فإنّ الإسلام صار قوياً، وصار الانضمام إليه شأن المخلص وغيره، وشأن

المؤمنين على اختلاف درجات الإيمان، ويشوبه حينئذ تمازج المصالح الدنيوية والأخروية.

إن الاختبارات والامتحانات جهازٌ لتصفية المقاصد وكشف الأغراض والغايات، ومن يقف معك في موقع الشدة يختلف عمّن يقف معك في موقع الضعف، حيث سيكلفه الوقوف معك كثيراً.

ونحن نرى كيف أنه داخل الأوساط الدينية يحكم هذا المنطق أيضاً. فكم من أشخاص يصدق عليهم ما صدق في حقّ كثير من الناس زمن الإمام الحسين عليه السلام «قلوبهم معك، وسيوفهم عليك». فأنت ترى الكثيرين يتفاعلون مع حركة الوعي والبصيرة والهداية مقابل حركة الغلو والخرافة والتهريج من جهة، وحركة التميعم والتقزيم والمحاربة للدين من جهة ثانية، لكن عندما تتطلّب الأمور منهم موقفاً فإنك لا تجد أحداً، ولا ترى نفسك إلا شبيهاً - في الصورة - لمشهد مسلم بن عقيل، فإذا قوي عودك سمعت ثناءهم ومدحهم وإطراءهم.

هنا أهميّة الحفر في المقاصد؛ لتكون مقاصد سليمة وصحيحة، فيناضل الإنسان لأجل الله تعالى، ويستعدّ للتضحية، فإذا بني هذا القصد في الروح الإنسانية فسوف تجد مع مسلم بن عقيل الكثيرين.

- يتبع -

جولة في رحاب السيد الصدر ومدرسته العلمية

حوار مع: د. الشيخ علي رضا أعرافي (*)
ترجمة: حسن مطر

الحياة الفكرية والاجتماعية للسيد الصدر —

✽ نتقدم إليكم بجزيل الشكر على منحنا شيئاً من وقتكم. كما نشكر لكم حسن اهتمامكم بمجلّتنا. وعلى هذا الأساس؛ وبالالتفات إلى إشراف سماحتكم على السيرة العلمية - الأخلاقية لهذا الشهيد الكبير، وردنا إلى نبعكم الصافي ومنهلكم العذب؛ لكي نفترف منه ما ينفع الطالب المنتسبين إلى جامعة المصطفى (عليه السلام) العالمية من سيرة شهيدنا الغالي.

ومن باب المقدمة تعلمون أنّ السيد الشهيد الصدر (عليه السلام) قد فتح باباً جديداً في تاريخ الفكر والجهاد الإسلامي، فما هو رأي سماحتكم حول الحياة الفكرية والاجتماعية للسيد الشهيد؟

✽ وأنا بدوري أتقدم بالشكر لكم على الجهود التي تبذلونها، وأرجو أن تكون الأعمال التي تقومون بها دقيقة وجامعة ومتقنة، وأن يتمّ العمل في إطار من الروح الحوزوية الأصيلة.

وأما في ما يتعلق بالسيد الشهيد محمد باقر الصدر (عليه السلام) فهناك أمور أستعرضها كمقدمة بشكل متسلسل، ثم أنتقل بعد ذلك إلى بيان سلسلة من خصائصه الشخصية، وهي تميل في الأعم الأغلب إلى ناحية الحقل العلمي، والجانب الآخر منها

(*) رئيس جامعة المصطفى (عليه السلام) العالمية في إيران، ورئيس مركز دراسات الحوزة والجامعة، وأستاذ الدراسات العليا في الحوزة العلمية. ساهم بشكل فعال في تجويد النظام التعليمي في حوزة قم، ولاسيما قسم الدراسات والأبحاث.

يرتبط بخصائصه الأخلاقية - الاجتماعية.

وقبل الدخول في الإجابة عن سؤالكم يجب علينا أن نقول من باب المقدمة: إنّ الشهيد الصدر رحمه الله، على الرغم من عمره القصير، قدّم الكثير من الأعمال القيّمة والتراث المبارك، حتى أضحى شعاع تأثيره الفكري والعلمي والاجتماعي والسياسي واسعاً جداً. فكان بحسب دائرة تأثيره، سواء في العراق أو الأقطار الأخرى، وخاصة إيران والعالم الإسلامي بأسره، من الرجال البارزين في تاريخ العصر الحديث. من هنا فإنّ النقطة الأولى تكمن في تأثيره الكبير رغم عدم تجاوزه العقد الخامس من عمره الشريف. فبعد شخصية الإمام الخميني رحمه الله، الذي يحتل المرتبة المتقدمة، يحتل السيد الشهيد الصدر رحمه الله من ناحية سعة التأثير وكثرة الأعمال الفكرية والثقافية في المرحلة المعاصرة مكانة مرموقة قطعاً.

النقطة الأخرى هي أنّ بالإمكان تقسيم حياته وسيرته المباركة إلى أربع مراحل، على النحو التالي:

١. الطفولة.

٢. الدراسة، والتحقيق، والتدريس.

٣. الجهاد والمواجهة.

٤. المرجعية، وخوض غمار الحلبة الاجتماعية.

أما مرحلة الطفولة فقد تمّ طيها بسرعة بالغة؛ إذ ظهرت عليه مخايل النبوغ ولما يتجاوز بعد السابعة أو الثامنة من عمره المبارك.

كما طويت مرحلته التعليمية والدراسية بنفس السرعة، حيث أكمل مسيرته التعليمية في ظرف خمسة أو ستّة أعوام، حتّى بلغ مرحلة الاجتهاد وله من العمر عشرون سنة. من هنا فإنّ القسم الأكبر من عمره المبارك قد شُغل بالتحقيق والتدريس والإنتاج الفكري، وإنّ المرحلة الأخيرة من حياته شهدت بداية مرجعيته وخوضه في ميادين الجهاد والمواجهة.

أما النقطة الثالثة فهي أنّ ظروف تألّق نجم السيد الشهيد الصدر رحمه الله من الناحية الاجتماعية جديرة بالملاحظة والاهتمام. وعليه فمن الضروري أن نرصد

نصوص معاصرة - السنة السابعة - العدد الثامن والعشرون - خريف ٢٠١٢ م - ١٤٣٣ هـ

الأوضاع الاجتماعيّة التي كانت سائدة في عصره، فقد شهد العالم الإسلاميّ في تلك المرحلة الأمور التالية:

١. كان المدّ الشيوعي والأفكار المادّيّة في إطارها الماركسي هي السائدة في العالم. وإنّ الأيديولوجيا الماركسية كانت تقوم في تلك المرحلة على المطالبة بالعدالة والحرية. وإنّ الكفاح في العالم الإسلاميّ كان يصبّ في هذه القوالب الأيديولوجية الماركسية، ولم يكن الإسلام مطروحاً بوصفه حركة حيّة وحاضرة في ساحة المواجهة، وإنّما كانت المطالبة بالإسلام تأتي في الدرجات الثانويّة. فكانت الأجواء المهيمنة على المناخ التنويري في الجامعات وأروقة النضال مفعمة بالتيارات المادّيّة في قالب الماركسية، وكان المستنيرون في بلدان العالم الثالث والمحتقرون في العالم يلجأون إلى الماركسية. وبطبيعة الحال فإنّ الماركسية واجهت إخفاقاً ذريعاً في المراحل الأخيرة.

٢. هيمنة الأفكار والنظريّات الغربيّة، من قبيل: الرأسماليّة، وسيادة المال، والاستكبار الغربيّ، التي كانت سائدة في كافّة أقطار العالم، بما في ذلك البلدان الإسلاميّة أيضاً. وحتّى في هذه المرحلة الراهنة - رغم كلّ الجهود المبذولة - لا نزال نشهد هجمة للتفكير الغربيّ على جميع الأصعدة، وفي الأبعاد الفلسفيّة والمعرفيّة والثقافيّة والسياسيّة. وفي عصر السيد الشهيد محمد باقر الصدر رحمته الله كان هذا الهجوم قائماً في العراق، وسائر الأقطار في العالم الإسلاميّ أيضاً.

٣. كما كانت نظريّات القوميّة العربيّة في عصر السيد الشهيد الصدر رحمته الله سائدة في كلّ من العراق وسوريا والكثير من الأقطار العربيّة الأخرى، فكانت القوميّة العربيّة هي الفكر الغالب في هذه البلدان.

وعليه فإنّ السيد الشهيد الصدر رحمته الله كان يعيش ظروفاً تعرّض فيها العالم الإسلاميّ لهجوم وعدوان مثلث، تمثّل في: الماركسيّة؛ والرأسماليّة؛ والقومية العربيّة، ومن جهة أخرى كان العالم الثالث ينأى بنفسه عن العالم الإسلاميّ.

ومن ناحية أخرى فإنّ العراق نفسه كان يعاني في تلك المرحلة ظروفاً عصيبة خاصّة، ومن أهمّها: سيطرة حزب البعث على مقاليد الأمور. وعندما انتقل السيد

الشهيد الصدر عليه السلام بالتدريج من مرحلة الدراسة إلى مرحلة التدريس شهد تعاقب مختلف الحكومات في العراق، حتى جاءت حقبة حزب البعث وحكومة صدام، التي شهدت الكثير من الأحداث الصاخبة. وفي هذه المرحلة كان الشهيد الصدر عليه السلام يواجه حكومة جائرة ومستبدّة، تسعى إلى استئصال واجتثاث الحوزات العلميّة، وتعمل على حلّ مدينة النجف الأشرف بوصفها حاضنة الحوزة العلميّة؛ لتؤسّس بعد ذلك حالةً إلحاديّة، وطمساً للمعالم الدينيّة في العراق.

ومن جهة أخرى كان السيد الشهيد الصدر عليه السلام يواجه جموداً ونحولاً في الحوزة العلميّة في النجف الأشرف. لقد كانت حوزة النجف حوزة عريقة وقديمة، وكانت لها الكثير من البركات على التاريخ المعاصر، حيث تخرّج منها عدد كبير من العلماء البارزين والمرموقين، إلّا أنّ هذه الحوزة كانت من ناحية تواجه في تلك المرحلة ضغوطاً كبيرة من قبل حزب البعث، كما كان هناك بعض القصور من قبل عدد من العلماء من ناحية أخرى، الأمر الذي أدّى إلى ابتعادها عن الواقع الاجتماعيّ، وانطوائها على نفسها. ومن جهة أخرى فإنّ الضغوط الداخليّة كانت تعمل على اضمحلالها، وخفوت بريقها.

كما أنّه في المرحلة الأخيرة عاصر تصاعد أحداث الثورة الإسلاميّة في إيران، أي تألّق نجم الإمام الخميني عليه السلام، وظهور الثورة، ومسائل من هذا القبيل. وإلى جانب هذه الأمور كلّها كنّا نشهد الاختلافات التاريخيّة والمذهبيّة في العالم الإسلاميّ. وبالتالي فإنّه كان يشهد حالة من النكوص في حضارة العالم الإسلاميّ، وحالة من الضعف والتخاذل في مواجهة العالم الغربيّ. هذه هي الأوضاع التي عاصرها السيد الشهيد الصدر عليه السلام، وكان يسعى إلى تغييرها.

ذكرنا حتّى الآن ثلاث نقاط حول الواقع الفكريّ، وثلاث نقاط آخر حول الظروف العالميّة في عصر السيد الشهيد الصدر عليه السلام. وفي المقابل كانت إيران تتّجه نحو الثورة، وكانت الحوزة العلميّة في قم المقدّسة تتّجه نحو الازدهار والتقدّم. كان السيد الشهيد الصدر يعيش هذه الظروف المهيمنة على العالم الإسلاميّ، ويستشيق الهواء في

مثل هذه الأجواء المشحونة بالمفاهيم الفكرية والمعرفية المعادية، فكان بمنزلة القبطان الذي يقود سفينته في اتجاه معاكس للأمواج والأعاصير؛ محاولاً في ذلك قلب المعادلات الفكرية في العالم الإسلاميّة. ينذر أن يوجد شخصٌ يستطيع فهم هذه المسائل، ويسعى للتفكير في هذه الحلقة الجامعة، ولعب دور مؤثر. بيد أن السيد الشهيد الصدر رحمته الله كان من أولئك الأفاضل؛ إذ كان على دراية كاملة بالجغرافيا السياسيّة - المعرفيّة في العالم، وكان يروم الاضطلاع بدور فيها. وقد تمكّن من القيام بهذا الدور إلى حدٍّ ما.

السمات الأخلاقية البارزة للشهيد الصدر —

❁ ما هي الخصائص البارزة عند السيد الشهيد الصدر رحمته الله التي يمكن اعتبارها مثلاً يُحتذى في هذا الإطار؟

❁ ١. النبوغ: يعدّ السيد الشهيد محمد باقر الصدر رحمته الله من عباقرة ونوابغ العصر الحديث؛ حيث ظهرت عليه علامات النبوغ والعبقريّة منذ الصغر، وبلغ مرحلة الاجتهاد المطلق عندما كان يافعاً أو في شرح الشباب. وفي عقده المتوسط خرج الكثير من الطلاب، وأنتج الكثير من المؤلفات والكتب العلميّة في مختلف الفروع الإنسانيّة والإسلاميّة. الأمر الذي يعكس نبوغه الفكريّ، حيث ولد في أسرة زاخرة بالعطاء الفكريّ والعلميّ، وإن كان السيد الشهيد يقف على هرم العطاء العلميّ لهذه الأسرة، قديماً وحديثاً.

٢. الأسرة العلميّة والمعنويّة: لقد ولد السيد الشهيد الصدر رحمته الله ونشأ وترعرع في أسرة علميّة كبيرة وعريقة، عرفت الكثير من الشخصيات الفذة والبارزة.

٣. الزهد والتقوى: لقد عُرفت أسرة السيد الشهيد الصدر رحمته الله بالزهد والورع والتقوى، ولم يكن السيد الشهيد مستثنى من هذه القاعدة، حتّى يمكن القول: إنه يقلّ أن نجد في المرحلة المعاصرة من يُشبه السيد الشهيد الصدر في زهده؛ إذ يعدّ مثلاً هاماً لجميع الطلاب وعلماء الدين في هذا المجال. فمنذ مرحلة الطفولة، حيث ظهرت عليه أمارات النبوغ وحده الذكاء، اقترح عليه الكثير من المقربين أن يُسارع في شدّ

نصوص معاصرة - السنة السابعة - العدد الثامن والعشرون - خريف ٢٠١٢ م - ١٤٣٣ هـ

الرحال إلى الخارج ومواصلة دراسته هناك؛ ليعود بشهادة علمية مرموقة تؤهله للحصول على وظيفة عالية في أجهزة الدولة والحكومة، بيد أنه أثر حياة التقشف والزهد على مواصلة التعليم في الخارج والمناصب الدنيوية. وقد أدرك ذلك منذ الصغر، حيث تنكّر لجميع المطامع الدنيوية، ودخل المناخ الحوزوي، مع العلم أنّ الأجواء الحوزوية تفتقر إلى هذه المحفّزات. وإنّ هذا التنكّر للدنيا، وعدم الاهتمام بمظاهرها الخلابة، يعتبر من الخصائص الثابتة لهذه الأسرة. فقد ظهرت عليه آثار الزهد والتقوى منذ الصغر، ولازمته إلى آخر لحظة من حياته المباركة. فقد عاش طوال عمره في منزل متواضع، ولم يخط خطوة واحدة باتجاه مظاهر الدنيا.

٤. الصبر والمقاومة والشجاعة: لقد كان السيد الشهيد الصدر عليه السلام رجلاً مقاوماً جلدًا صبوراً، وكان في هذه الأوصاف رجلاً فريداً من نوعه. وإنّ شجاعته وصبره في مواجهة التحديات التي جعلت منه شخصاً مؤهلاً للوقوف بوجه الطاغية صدام، في حين لم يجرؤ على ذلك أحدٌ غيره. فتعرّض للسجن مراراً، ودخل السجن ببسالة عالية، كما فرضت عليه الإقامة الجبرية لأشهر عديدة منع فيها حتى من الخبز والماء، ولكنه تحمل جميع ذلك بصبر وإباء. فقد بلغ به الثبات والصبر والشجاعة، والتوكّل على الله، والتكسر للدنيا، هذا المستوى الرفيع، وقد نقلت عنه في ذلك الكثير من المواقف المذهلة والاستثنائية.

٥. الروح الشفافة والعواطف الزاخرة: النقطة الأخرى في شخصية السيد الشهيد الصدر عليه السلام تمثّلت بروحه اللطيفة وعواطفه الجياشة. ومن الملفت أن يكون شخصاً على مثل تلك الدرجة العالية من الزهد والشجاعة والثبات الذي تقدّم ذكره وفي الوقت نفسه يكون مرهف العاطفة. نقل عنه أحد كبار العلماء قائلًا: «كنت ذات يوم عند السيد الشهيد الصدر، فلما أردتُ توديعه صافحني، وشدّ على يدي، فشعرت في تلك اللحظة كأنّ شلالاً من المحبة يجتاح كياني». كما كانت الرسائل التي يكتبها إلى أصدقائه مفعمة بالحبّ والمودة، وزاخرة بصدق العاطفة. وقد كانت هذه العواطف والمشاعر تبدو غريبة حتّى بالنسبة إلى خصومه ومناوئيه. فكان وجوده ورسائله وتعامله بشكل عامّ زاخراً بالمحبة والعاطفة القائمة على أساس الإسلام، حتّى أنّه

كان يواجه أحياناً أولئك الذين يسيئون إليه بكلّ محبة وحنان. وقد كانت أخلاقه في التعامل مع أسرته وأساتذته على هذه الشاكلة دائماً. ومن باب المثال: كان تعامله مع السيد الخوئي - الذي كان أستاذاً له، ويختلف معه في بعض المسائل الاجتماعية - يشرح بالاحترام والتبجيل. فقد كان بشوش الوجه، باسم الثغر، واسع الصدر، كريم الأخلاق، وكان يحمل في قلبه بحراً من المحبة والخلق الكريم، وكانت له صلات اجتماعية قوية، وكان الذين يأتونه ويقصدونه من أماكن أخرى يجذبون إليه. وهنا أذكر بأن هذه الصفة ضرورية جداً لعالم الدين، فيجب على عالم الدين أن يكون محباً للناس، وأن يتمتع بجاذبية خاصة تحببه إلى الناس؛ لأن ذلك يساعده في التأثير عليهم. وهذا أمرٌ أكد عليه علم النفس الحديث، وأشارت له الكثير من النصوص الدينية والمضامين الإسلامية. كما كان النبي الأكرم ﷺ يتمتع بهذه الجاذبية، التي تمّ التأكيد عليها في الكثير من الآيات القرآنية. وإنّ الشهيد السيد الصدر ﷺ قد تميّز بهذه الصفة.

٦. الإخلاص: إننا نلاحظ في حياة السيد الشهيد الصدر ﷺ إخلاصاً قلّ نظيره. فكان مثلاً يريد طباعة مؤلفاته دون ذكر اسمه عليها. وحتى عندما نشر كتاب (فلسفتنا) كانت دموعه تجري على خديه أشفاقاً على نفسه، وكان يقول: أخشى أن يكون هذا الكتاب قد طبع ليحمل اسمي ورسمي! وكان يقول أحياناً: لو أنّ تلك الأحداث والوقائع قد حصلت في بلد إسلامي آخر هل كنتُ أبدي نفس النسبة من المشاعر والأحاسيس للمسلمين ولشعب ذلك البلد؟ كان هذا الإخلاص الذي يتمتع به السيد الشهيد الصدر ﷺ مهماً للغاية. لقد كان في إخلاصه يتجاوز المواطنة. لقد كان موقفه من الثورة الإسلامية الإيرانية في غاية التميّز، فعندما قيل له: أنتَ الأمرُ النهائي في العراق شريطة أن تترك دعم الثورة الإسلامية الإيرانية رفض ذلك، ودفع حياته ثمناً لهذا الموقف.

فمن وجهة نظري إنّ السيد الشهيد محمد باقر الصدر ﷺ كان في الدرجة الأولى شهيد الثورة الإسلامية والإمام الراحل ﷺ. لقد كان لدينا الكثير من الشهداء، من أمثال: الشهيد مطهري ﷺ، والسيد الشهيد بهشتي ﷺ، وأمثالهما، ممن

تحلّق حول الإمام، وكان من أفراد حاشيته، إلّا أنّ السيد الشهيد الصدر رحمته الله كان مواطناً في بلدٍ آخر، وكانت الأبواب مفتوحة له. وبالنظر إلى موقعه العلميّ ومرجعيتّه الدينيّة كان بإمكانه أن يفتح لنفسه آفاق المستقبل، وخاصّة أنّ الطاغية صدام كان قد اقترح عليه المحفّزات، وقدم له الكثير من المغريات، معلّقاً ذلك على تخليه عن نصرة الإمام الخميني؛ ليكون بعدها سيّد العراق بلا منازع، ولكنّه رفض ذلك بكلّ شجاعة، فكان ذلك دليلاً على عمق إخلاصه وشعوره بروح المسؤوليّة.

الخصائص العلميّة للسيد الشهيد —

❁ ذكرتم حتى الآن الخصائص الأخلاقيّة للسيد الشهيد محمد باقر الصدر رحمته الله، فهل لكم تزويدنا ببعض خصائصه العلميّة أيضاً؟

❁ ١. المنهجية على أساس من طريقة الاجتهاد: كان منهج السيد الشهيد يقوم على أساس الطريقة الاجتهادية، خلافاً للكثير من المتورّين والمفكرين المجدّدين، الذين يبتعدون أحياناً عن عمق الأساليب في حقل العلوم الإسلاميّة والمسائل العقليّة. فقد كانت آثاره العلميّة تقوم على المنهج الاجتهادي والعقليّ الدقيق والكامل. وقد كان سماحته مجتهداً إلى حدّ الكمال، وكانت أصالة تفكيره العقليّ مشهودة في جميع أعماله ومؤلفاته العلميّة.

٢. الأصالة في التجديد والإبداع: إننا نشهد في أعمال السيد الشهيد الصدر رحمته الله نوعاً من الإبداع والتجديد. من هنا يمكن القول: إنّه مجدّد مبدع. فعلى الرغم من كونه مجتهداً، ويمارس النشاط الاجتهادي في إطار النظام التقليديّ في الفقه والأصول، يلقي نظرة على العالم الجديد أيضاً، حيث نجد بحوثه ناظرةً إلى المسائل المعاصرة أيضاً. إنّ السيد الشهيد الصدر لم يكن رجل دين منفصل عن المحافل والأروقة الأكاديميّة والعالم المعاصر، بل كان مطلعاً على جميع المدارس الفكرية، وكان يسعى إلى جعل المعارف الدينيّة ناظرة إلى المرحلة المعاصرة. وهذا إبداع فكريّ جديد يضرب بجذوره في التقليد، ويربط التقليد بالحدّثة والعالم المعاصر؛ لكي يليّ حاجة المرحلة الراهنة.

نصوص معاصرة - السنة السابعة - العدد الثامن والعشرون - خريف ٢٠١٢ م - ١٤٣٣ هـ

٣. إدراك التيارات المعرفية والعقلية والسياسية والاجتماعية في العالم الجديد:

عندما تلقى نظرة على تراث السيد الشهيد الصدر رحمته الله نجد أنه قد استوعب أعقد البحوث المعرفية السائدة في العالم الغربي، من الاقتصاد وعلم الاجتماع وما شاكل ذلك. من هنا فإن لإبداعه وتجديده من جهة جذوراً في التراث التقليدي، ومن جهة أخرى نجد فيه نزوعاً وميلاً إلى الواقع المعاصر، وقائماً على المعرفة الدقيقة للتيارات والمدارس الفكرية السائدة في العالم المعاصر. والسبب الذي دعانا إلى فصل هذا النوع من الإبداع هو أن هناك مبدعاً يطلع على الطبقات العليا من العالم المعاصر، وهناك مبدع يرتبط بالطبقات الفكرية والثقافية والفلسفية العميقة. وإن السيد الشهيد الصدر رحمته الله، مضافاً إلى إبداعه في النوع الأول، كان يمتلك هذا النوع من الإبداع الفكري أيضاً، فكان على معرفة وثيقة بالتيارات المعرفية والمذاهب الفكرية أيضاً.

الصدر بين الموسوعية والتخصص —

❁ هل يمكن لنا أن ندعي بأن السيد الشهيد الصدر رحمته الله كان موسوعياً، وأن

معرفته لا تقتصر على حقل أو حقلين من العلوم؟

❁ أجل. إن دائرة دراساته وتحقيقاته العلمية متنوعة وكثيرة للغاية. فقد خاض سماحته في مختلف حقول المباحث العلمية والمسائل المعاصرة. ومن باب المثال: إن إحدى خصائص الشهيد مطهري رحمته الله تكمن في أنه قد ألف مختلف الكتب، ابتداءً من «قصص الأبرار» إلى «أصول الفلسفة»، ودخل في ما يقرب من عشرين محوراً هاماً من المحاور الإسلامية والمسائل المعاصرة، كتابةً وخطابةً. وهكذا الأمر بالنسبة إلى السيد الشهيد الصدر رحمته الله، حيث كان يمتلك أفقاً فكرياً واسعاً، وكانت أعماله العلمية جامعةً وشاملة.

وفي ما يلي نستعرض بعض مصاديق ذلك:

من جهة عمده السيد الشهيد إلى إبداع بعض الأعمال في حقل العلم والفلسفة بالمعنى التقليدي، الأمر الذي يُثبت أنه من المبرزين في هذا المجال. وفي الوقت نفسه دخل إلى الفلسفة بعمق، وعمد إلى تأليف كتاب (فلسفتنا) بالنظر إلى الفلسفة

نصوص معاصرة - السنة السابعة - العدد الثامن والعشرون - خريف ٢٠١٢ م - ١٤٣٣ هـ

الإسلامية، وهو في نقد الآراء والمذاهب الفلسفية المعاصرة التي تقود الناس إلى الشك، كما يؤسس فيه لأسس فلسفية هامة. وإنّ صلب كتاب (فلسفتنا) يدور حول علم المعرفة.

كما دخل السيد الشهيد في السنوات الأخيرة من عمره في حقل التفسير، ومضافاً إلى إبداعه نهجاً جديداً في التفسير فقد أضاف باباً جديداً إلى هذا العلم. وبالإضافة إلى هذه الأمور فإنّ سماحته قد دخل في الحقول العلمية الجديدة التي تحتاج إلى تنظيم، فمثلاً: في كتاب (اقتصادنا) عمد إلى نقد النظام الاقتصادي الغربي والاشتراكي والرأسمالي، بالإضافة إلى تأسيسه لنظام اقتصادي جديد في دائرة التفكير الإسلامي.

وفي حقل الحكومة والنظرية السياسية في الإسلام هناك للسيد الشهيد الصدر نظرية سياسية.

وفي حقل المسائل المنهجية، كالمنطق مثلاً، نجد السيد الشهيد مبدعاً لنظرية في باب منطق الاستقراء.

وفي التاريخ نجده صاحب رأي في تأويل تاريخ الإسلام وتاريخ الأئمة عليهم السلام. وعلى هذا الأساس نجد أنه رغم قصر عمره، وكثرة الأزمات في العصر الذي عاشه، قد أنجز الكثير من الأعمال التحقيقية في هذه العقود الثلاثة، وخاض في دائرة واسعة من العلوم الإسلامية الجديدة، وأبدع الكثير من المؤلفات القيّمة.

أبرز نظريات السيد الصدر —

❁ ما هي أهمّ الأسس والمباني العلمية للسيد الشهيد الصدر رحمته الله من وجهة نظركم؟

❁ إنّ أوّل وأهمّ أساس ومبنى علميّ لسماحة السيد الشهيد محمد باقر الصدر رحمته الله يكمن في رؤيته العميقة والمنهجية والأسلوبية. إنّ المنهجية التحقيقية في الحياة العلمية هامة للغاية. وإنّ من الإبداعات على مستوى التطوير العميق في المنهج العلميّ هو أن يشتمل على نوع من التجديد. وهذا ما توفّر عليه السيد الشهيد رحمته الله.

نصوص معاصرة - السنة السابعة - العدد الثامن والعشرون - خريف ٢٠١٢ م - ١٤٣٣ هـ

وفي ما يلي نشير إلى عدّة نماذج من ذلك:

فأولاً: كان سماحته صاحب ابتكارات في علم الأصول. وفي ما يتعلق بحقل الفقه والأصول لم يسر على المنهج التقليديّ، وإنما اتّخذ منهجاً جديداً في ذلك. **وثانياً:** في مجال المنطق أبدع الأسس المنطقيّة للاستقراء. وقد أضحى هذا الكتاب معتمداً في الجامعات العالميّة، وهو يبحث في ما وراء النصوص الدينيّة، ويثبت وجود الخالق على حساب الاحتمالات. وفي ما يتعلق ببحث الاستقراء أبدع اليقين الذاتي في باب حركة الاستقراء نحو القطع واليقين، وذلك من خلال المنهج الرياضي الدقيق.

وثالثاً: في حقل التفسير سار على منهج التفسير الموضوعيّ، ولكن لا بالمعنى المتعارف، فلا نعمل إلى أخذ الموضوعات من النصوص الدينيّة مباشرة، وإنما نأخذها من واقع الحياة، ونعمل على عرضها على الدين. وبطبيعة الحال فإنّ هذا لا يعني إبداعاً لمنهج جديد، وإنما هو استعراض لمنهج.

ورابعاً: هو الأمر الكامن وراء (اقتصادنا)، بمعنى أسلوب التنظير، وتجميع الموضوعات الفقهية؛ للوصول إلى رؤية جوهرية. وهذا هو نفس التنظير على مستوى المنظومات الفكرية. وللأسف الشديد فإنه لم يتمّ العمل على هذا الأسلوب. ولو أنه قد تمّ العمل به لكان فيه الكثير من البركات على الحوزة العلميّة.

ومن جملة الخصائص العلميّة التي كان السيد الشهيد الصدر رحمته الله يتحلّى بها هو إبداعه العلميّ. فقد كان لسماحته إبداع متواصل ودائم، حتّى في خطابه العاديّة، ومحاضراته الأخلاقيّة. ففي رسالته العمليّة مثلاً نجد لديه تبويهاً جديداً في الفقه، وكذلك في خطبه نجد منهجية خاصّة لا نجدها عند غيره.

كما أنّ القلم الرصين والبيان البديع الذي تمتّع به السيد الشهيد كان من جملة الخصائص التي تميّزه من غيره. فقد كان يمتلك مقدرة كتابيّة فاخرة ومقتنة وجذابة، وهكذا الأمر بالنسبة إلى بيانه أيضاً. إنّ الخطابات التي كان يلقيها سماحته في الموضوعات الأخلاقيّة في غاية التأثير، بحيث كان جميع من يستمع إليه

نصوص معاصرة - السنة السابعة - العدد الثامن والعشرون - خريف ٢٠١٢ م - ١٤٣٣ هـ

تتفجر عيناه بالدموع.

منهج السيد الصدر في الدفاع عن الفكر الديني —

❁ كما تعلمون فإنَّ السيد الشهيد محمد باقر الصدر رحمته الله كان من المدافعين البارزين عن الفكر الديني في العصر الحاضر، فكيف تقيّمون منهجه في مواجهة الأفكار المستوردة؟

❁ لقد انتهج سماحة السيد محمد باقر الصدر رحمته الله في مواجهة الحضارة الغربية منهجاً معتدلاً وحازماً، كما هو الحال بالنسبة إلى الإمام الخميني رحمته الله. هناك في ما يتعلق بالتعاطي مع الثقافة الغربية مَنْ يذهب إلى الإلغاء والرفض المطلق. وهذا غير صحيح؛ لأنَّ الغربيين لهم محاسنهم وتقدّمهم العلمي أيضاً، ويجب علينا أن نستفيد من تجاربهم العلميّة والفكريّة. وهناك في المقابل مَنْ يذهب إلى القول بضرورة الذوبان في الفكر الغربي بشكلٍ كامل. وهو غير صحيح أيضاً.

لقد كان السيد الشهيد الصدر رحمته الله يذهب إلى ضرورة إحياء الإسلام، والوقوف في وجه الغزو الثقافيّ المضاد والمناهض للفكر والأخلاق الإسلاميّة. بيد أنَّ سماحته لم يكن يرضى بالوقوف المتحجّر والرجعيّ، بل كان يعتقد بضرورة النشاط والتحقيق العلميّ القائم على العقل والمنطق، ويرى ضرورة أن يتسلّح الشباب من الناحية العلميّة. وفي الوقت نفسه كان يحثّهم على الوقوف في وجه الجانب السلبيّ من الحضارة الغربيّة، وكان يؤكّد على ضرورة المقاومة في بعض المواطن.

ونجده يطبّق ذلك على المستوى العمليّ، فيجاهد ويقف في وجه ممارسات صدام، وفي الوقت نفسه ينشط على الصعيد العلميّ، ويسعى إلى توجيه الناس على المستوى الأخلاقيّ والعلميّ.

نظرية الصدر حول السنن التاريخية في القرآن

قراءة نقدية

(*)
السيد ضياء الدين مير محمدي
ترجمة: محمد عبد الرزاق

تمهيد —

تنقسم أبحاث التاريخ الفلسفية - نظراً لطبيعة المقصود من مصطلح التاريخ والمنحى المعرفي (بشقيّه) - إلى فرعين معرفيين، هما: «الفلسفة النظرية أو الجوهرية للتاريخ»^(١)؛ «الفلسفة التحليلية أو النقدية للتاريخ»^(٢).
فلسفة التاريخ النظرية أو الجوهرية هي معرفة من الدرجة الأولى، تعنى بدراسة الظواهر والوقائع السابقة، وتحللها فلسفياً، وصولاً إلى معرفة مسار التاريخ، وتحديد معالمه، وتنظيم أسسه. كما أن هذه الفلسفة مستندة إلى عالم الظواهر التاريخية ووقائعه، وهي أبعد مدى من العقلانية المتداولة في عامة الدراسات التاريخية هذه الأيام، غرضها الكشف عن ماهية المسار الكلي لحركة التاريخ^(٣).
أما بالنسبة لفلسفة التاريخ التحليلية أو النقدية فهي معرفة من الدرجة الثانية، وهي مهتمة بدراسة علم التاريخ، وكتابته بأسلوب العقلانية، مع التأكيد على أبعاد علم التاريخ: الفلسفية؛ والمنطقية؛ والمعرفية، لتقدم عنه وصفاً وتعليلاً علمياً.
وتسعى هذه الفلسفة من خلال ذلك إلى كشف وإدراك القدرة والعجز في علم

(*) باحث في التاريخ الإسلامي.

التاريخ؛ من أجل النهوض بواقعه بلحاظ الجانب العلمي والنوعي. والتحليل الفلسفي لعملية تدوين التاريخ والسبل المنطقية والعلمية المتبعة في البحث التاريخي من مهام الفلسفة التحليلية أو النقدية للتاريخ^(٤). ثمة تفاوت بين هذين الفرعين المعرفيين بلحاظ «الموضوعية»^(٥)، و«المنهجية»^(٦)، وأيضاً «الغائية»^(٧)، والبنية التحتية لكل منهما. فعلى صعيد البعد الموضوعي هناك فوارق من قبيل: الاختلاف في نوع المعرفة^(٨)، والاختلاف في المصطلح، والتفاوت في التصنيف^(٩)، وكذلك الاختلاف في العلوم المتقدمة والعلوم المتأخرة^(١٠). وعلى صعيد المنهجية فإن الفلسفة النظرية أو الجوهرية للتاريخ تفيد - مضافاً إلى المنهج العقلاني - من مناهج البحث التطبيقي والتجريبي لتبعاظ الظواهر التاريخية والحضارات، ومن مناهج تقنية عرض المستندات والوثائق والشواهد التاريخية. وهي منهجياً لا محل لها في الفلسفة التحليلية أو النقدية. وفي البعد الغائي فإن الغاية في الفلسفة النظرية أو الجوهرية للتاريخ هي إثبات القوانين المتحكممة بالظواهر والتحوّلات التاريخية، وكذلك فهم النظام والعملية العامة من حيث التفكير في قوانين التاريخ ومحوّلاته. في حين تتمثل الغاية عند الفلسفة التحليلية أو النقدية في إثبات علمية علم التاريخ، وتحقيق السيطرة والإدارة العلمية للتاريخ، ولكتابته؛ للتعرف على أسس الكتابة العلمية ضمن نظام معرفي ممنهج ومنطقي.

فلسفة التاريخ في القرآن الكريم —

بالنسبة لموقف القرآن من التاريخ وعملية تدوينه يمكن أن تستبطن منه أسس الفلسفة النظرية أو الجوهرية للتاريخ، وحتى الأسس الرئيسة للفلسفة التحليلية أو النقدية. ولا تتطوي الرؤية القرآنية للتاريخ وفلسفته - بكلا الفرعين المعرفيين - على الواقعية والوصفية وحسب؛ وإنما تقدّم نمطاً في البحث التاريخي، معتمداً على أسلوب الحكمة والعقلانية التاريخية وآليات الهرمونطيقيا والتأويلية^(١١). لا شك أن ثمة اختلافاً جذرياً بين المبادئ الأساسية للتعامل مع التاريخ وعملية

تدوينه في القرآن وبين الأسس والمبادئ لدى التاريخ البشري، وذلك على صعيد المنهج والفن والأسلوب، وحتى على صعيد الأيديولوجيا التاريخية. ففي الفلسفة النظرية أو الجوهرية في الرؤية القرآنية يمكن الإشارة إلى مبادئ قانون الحرية وإرادة الإنسان في التاريخ، وقانون التكامل، ومبدأ أصالة العمل^(١٢). كما يمكن الحديث في الفلسفة التحليلية أو النقدية من وجهة نظر القرآن عن المبادئ العامة للتدوين العلمي، من قبيل: مبدأ الحياد ونبذ الكيدية في كتابة التاريخ، ومبدأ التوحيد في التاريخ^(١٣)، ومبدأ التركيب^(١٤)، وكذلك مبدأ محورية الناس^(١٥) في التاريخ^(١٦).

تفاصيل نظرية الشهيد الصدر القرآنية —

يتطرق الشهيد الصدر في دراسته المفاهيم القرآنية إلى بيان نظرية السنن التاريخية في القرآن الكريم. وكانت القضايا المطروحة في هذا الباب من المواضيع المنتمية إلى الفلسفة النظرية للتاريخ. وقد رأى السيد الشهيد أن سنن التاريخ في القرآن هي عبارة عن مفاهيم تقنّ لمسار التاريخ، وترسم له خطوته وأهدافه أيضاً، وبذلك راح يقدم لنا نموذجاً من الفلسفة النظرية في إطار قرآني لحاكمية التاريخ. أما هدف بحثنا الحالي فهو تقديم دراسة نقدية لأراء السيد الشهيد في مجال فلسفة التاريخ النظرية، والتي كان قد طرحها برؤية قرآنية. فإن ما يحسب لنظرية سنن التاريخ في القرآن هو جانب الإبداع والابتكار في طريقة التحليل وحادثة الموضوع نفسه. فللسيد الشهيد الريادة في الكتابة عن الفلسفة النظرية للتاريخ بتوجه قرآني، وإن المواضيع التي طرقها كانت جديدة وبكراً؛ إذ لم يسبق أن تناول أحد مواضيع الفلسفة النظرية برؤية قرآنية بهذه الطريقة الرائعة من حيث الشكل والمضمون والهيكلية أيضاً.

لقد قدّم السيد الشهيد المواضيع المرتبطة بالفلسفة النظرية من وجهة نظر القرآن تحت عنوان (نظرية سنن التاريخ)، وفي ثلاثة محاور، هي: (بيان بيئة القوانين والسنن التاريخية وأشكالها)؛ و(بيان خصائص وصفات القوانين والسنن التاريخية في

القرآن)؛ و(صيح هذه القوانين وسنن التاريخ في القرآن). وإليك تحليلها ونقدها:

أ. فكرة القوانين والسنن التاريخية في القرآن الكريم —

من وجهة نظر القرآن فإن الساحة التاريخية تدار عبر القوانين والنواميس. وقد ورد في النص القرآني موضوع هداية الساحة الاجتماعية والتاريخية عبر القوانين والسنن التاريخية على ثلاثة أشكال، هي: المفهوم الكلّي، والمصادق، والكلّي المصادقي. وقد بيّن السيد الشهيد كل واحد منها استناداً إلى الآيات القرآنية^(١٧).

١. الفكرة العامة للقوانين والسنن في القرآن الكريم —

تدلّ الآيات بمدلولها الكلّي على وجود سنن التاريخ بشكل واسع، وتوحي بأن للتاريخ - من وجهة نظر القرآن - قوانين كلية هي التي تتحكم بمساره وأحداثه. وتؤكد هذه الآيات حضور القوانين العلمية في التاريخ والظواهر التاريخية. وقد قسم السيد الشهيد الآيات المرتبطة بهذا الموضوع إلى ثلاثة محاور، وهي:

المحور الأول: المجتمع والأجل الجماعي —

استشهد السيد الشهيد بالآيات المتعلقة بموضوع الأجل الجماعي؛ لإثبات وجود الشكل العام للقوانين التاريخية^(١٨). وهي الآيات التي يستنبط منها فكرة تحكم القوانين بالتاريخ، وهي:

قال تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾ (يونس: ٤٩).

وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾ (الأعراف: ٣٤).

وقال تعالى: ﴿مَا نَسْفِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ (المؤمنون: ٤٣).

وتدلّ هذه النصوص القرآنية الشريفة على أنه هناك أجل جماعي - مضافاً إلى الأجل الفردي - يتحكم بمصير الأمة، وأن للمجتمع - كالفرد - حركة وحيوية، فإذا

نصوص معاصرة - السنة السابعة - العدد الثامن والعشرون - خريف ٢٠١٢ م - ١٤٣٣ هـ

افتقدها مات وتلاشى. فكما أن موت الفرد تابع للقانون وتأثير السنّة التاريخية فكذلك الأمم والمجتمعات لها أجلها وموعدها الصادر عن القوانين والسنن. إذاً فهذه الآيات تدلّ دلالة واضحة على نظرية السنن التاريخية، وحكم النواميس على التاريخ^(١٩).

وقفه نقديّة —

يبدو أن استشهاد السيد الصدر بهذه الآيات في إثبات سنن التاريخ لم يكن صائباً؛ وذلك للأسباب التالية:

أولاً: تدلّ هذه الآيات - من حيث المنطوق أو المطابقة والتضمّن، وحتى في ظهورها - على أجل المجتمع الجماعي، وليس لها أكثر من هذا المفاد. فهي تقتصر على إثبات مبدأ أجل الأمّة وموعدها فقط.

ثانياً: حتّى الدلالة المفهومية والالتزامية للآيات لا تثبت قانون وحكم التاريخ. ثم إذا كان يمكن إثبات سنن التاريخ بالدلالة الالتزامية فإن السيد الصدر لم يبيّن شيئاً من ذلك هناك.

ثالثاً: يعقد السيد الشهيد مقارنة وارتباطاً بين أجل الأمّة وحكم التاريخ، ثم يخلص، عبر مبدأ الأجل الجماعي، إلى إثبات حكم السنن التاريخية، لكنّه لم يوضّح لنا هذه الطريقة الانتزاعية المتبّعة.

رابعاً: لقد خرج الشهيد الصدر في هذه الآيات عن موضوع نظرية السنن التاريخية، فإن مبحث سنن التاريخ، من حيث الاختصاص والموضوع، منفصل عن موضوع أجل الأمّة الجماعي.

خامساً: لا توجد مطابقة وانسجام بين الدليل والمدعى؛ لأنّ دليله (أجل الأمّة) أعمّ من المدعى (سنن التاريخ).

وبناءً عليه لا يمكن استنباط الفكرة الكلية لنظرية السنن التاريخية من الآيات المذكورة.

المحور الثاني: مبدأ العقاب الدنيوي —

المحور الثاني الذي يستند إليه الشهيد الصدر في إثبات الفكرة الكلية لشكل السنن التاريخية هو العقاب الدنيوي؛ حيث قال بأن القوانين الكلية متحركة بسبب التاريخ، مستشهداً بالآيات الشريفة التالية:

قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً ۖ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ۖ﴾ (الكهف: ٥٨ - ٥٩).

قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (فاطر: ٤٥).

تحدث القرآن في هذه الآيات عن العقاب الدنيوي، وأن النتيجة الطبيعية والحتمية للظلم والعدوان هو العقاب الدنيوي بعينه. وهذا يدل - فضلاً عن العقاب الأخروي - على نزول العقاب الدنيوي بحق المخلوقات. فجميع هذه الشواهد هي من منطق التاريخ وسنته، وفقاً لهذا المنطق بالتحديد يحلّ العذاب بالمجتمع نتيجة للظلم والعدوان^(٢٠).

يذهب السيد الشهيد - استناداً إلى الآيات المذكورة آنفاً - إلى القول بأن التاريخ يبقى تحت رحمة القوانين والسنن العامة، وهي التي تحدّد مساره.

وقفه نقديّة —

بشكل عامّ يمكن القول: إن هذه الآيات الشريفة لا تدلّ أبداً على حكم السنن التاريخية؛ وذلك للأسباب التالية:

أولاً: تدلّ الآيات من حيث المطابقة والمنطوق، وكذلك ظهورها، على مبدأ ضرورة العقاب الدنيوي، ولا يستفاد منها أكثر من ذلك.

ثانياً: لا تدلّ هذه الآيات على السنن التاريخية، حتّى بالدلالة المفهومية والالتزامية. وإذا كان بالإمكان إثبات هذا النوع من الالتزام فإن السيد الشهيد لم

يذكر شيئاً من هذا.

ثالثاً: ما العلاقة المنطقية والمفهومية بين إثبات مبدأ العقاب الدنيوي وقضية السنن التاريخية؛ كي يتوصل السيد الشهيد من خلال هذا المبدأ إلى حكم السنن التاريخية؟ ثم إنه لم يبين طبيعة هكذا نوع من العلاقة.

رابعاً: إن موضوع الآيات المذكورة - من حيث المدلول - هو السنة الإلهية، لكن السيد الشهيد خرج عن موضوع البحث؛ لأن مبحث العقاب الدنيوي لا علاقة له بإثبات حكم السنن التاريخية ومحورية التاريخ. كما أنه لم يقدم دليلاً على كيفية مروره بمقام ثبوت وإثبات مبدأ إلهي اسمه العقاب الدنيوي، ووصله إلى مقام ثبوت وإثبات السنن التاريخية.

خامساً: على الرغم من دلالة هذه الآيات على مبدأ العقاب الدنيوي فعلاً فإنه ليس بالإمكان إثبات مصداق من هذه القوانين التاريخية عبر هذه الآيات بالتحديد، كي يتسنى بعد ذلك تعميم الحكم عن طريق الاستقرار التاريخي. وبناءً على ذلك فإن دلالة هذه الآيات ومداليلها خارجة تخصّصاً عن مبحث السنن التاريخية في القرآن الكريم.

المحور الثالث: زوال المجتمع نتيجة إخراج الأنبياء —

في المحور الثالث يستشهد السيد الصدر بزوال المجتمعات إذا حاولت إخراج الرسل من ديارهم على وجود الفكرة الكلية للسنن التاريخية في القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُواكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ♦ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٦ - ٧٧).

تدل الآية على مفهوم كلي مفاده أنه لن يطرأ تغيير أو تحول على السنة الإلهية أبداً، وهي السنة التي سار عليها الأنبياء السابقون أيضاً. فإن طرد الأنبياء وإخراجهم ومعارضتهم ستؤدي إلى زوال الأمة قريباً. وإن هذه الآية تتحدث عن واحدة من السنن التاريخية^(٢١).

نصوص معاصرة - السنة السابعة - العدد الثامن والعشرون - خريف ٢٠١٢ م - ١٤٣٣ هـ

من خلال هذا الشرح يتوصل السيد الشهيد إلى الاستدلال بالآية المذكورة على نفوذ وحاكمية السنن التاريخية من وجهة نظر القرآن الكريم.

وقفه نقديّة —

وفقاً للأسباب التالية فإنّ هذا الاستدلال محلّ نظر وتأمّل:

أولاً: إن مدلول الآية ومفادها - كسابقاتها - لا يحمل دلالة على موضوع السنن التاريخية. وإن مدلول الآية، مطابقة ومنطوقاً وتضمناً، ينصّ فقط على مسألة زوال المجتمع نتيجة لإخراج الأنبياء، ولا يتعدّى إلى ما سوى ذلك.

ثانياً: تفيد الدلالة التطابقية للآية استحالة التغيير في السنن الإلهية، لكن ليس هناك علاقة منطقية أو تلازم بين عدم التغيير في السنة الإلهية وثبوت حكم السنن التاريخية.

ثالثاً: استنتج السيد الشهيد من السنة الإلهية في الآية قضية السنة التاريخية، في حين ليس معنى استحالة التغيير في السنة الربّانية هو استحالة ذلك في السنن التاريخية. ويبقى هذا الاستنتاج بحاجة إلى دليل ومنطق قويّ أيضاً.

رابعاً: كان محلّ بحث الآية يدور حول إثبات مبدأ إخراج المجتمع نتيجة إخراج الأنبياء. وهذا المبدأ من حيث الموضوع مغاير لمبحث السنن التاريخية.

خامساً: جانب الدلالة الالتزامية غير متوفّر، ودلالة الآية المفهومية لا تدلّ على وجود السنن التاريخية. كما أنّ السيد الشهيد لم يتطرّق إلى الكلام عن الدلالة الالتزامية والمفهومية للتدليل على مدّعاء.

٢. مصاديق السنن التاريخية في القرآن الكريم —

كان موضوع الآيات التي تتحدّث عن سنن التاريخ في إطار المصاديق هو النوع الثاني من أشكال السنن والقوانين التاريخية، والذي أخذ السيد الشهيد يفصل فيه عن طريق ذكر الأمثلة، والاستشهاد بالآيات؛ إثباتاً لوجود قانون السنن التاريخية في النصّ القرآنيّ. وهنا استعرض هذا الموضوع في ثلاثة محاور، هي: السنن السابقة،

نصوص معاصرة - السنة السابعة - العدد الثامن والعشرون - خريف ٢٠١٢ م - ١٤٣٣ هـ

ونفي الاستثناء في السنة التاريخية، وموقف الرسل من المترفين في المجتمع. وإليك تفصيل هذه المحاور:

المحور الأول: سنن الأقوام السابقة —

يذهب السيد الصدر إلى إثبات قانون السنن التاريخية عبر الاستشهاد بآيات تتحدث عن سنن السالفين في إطار المصاديق.

قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٧).

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الأنعام: ٣٤).

جاء السيد الشهيد بهذه النصوص القرآنية شاهداً على وجود قانون سنن التاريخ، عبر ذكر مصاديقه في القرآن. ورأى أن هذه الآيات تؤكد على وجود السنن التاريخية من جانب، وتحت أيضاً على تتبعها والتتقيب في قصص التاريخ من جانب آخر؛ بغية التوصل إلى السنن والقوانين التي كانت سارية على الأنبياء السابقين، وعلى الرسول الأكرم ﷺ، في إطار قانون السنن التاريخية.

ويعتقد السيد الصدر أن للباري - عز وجل - رسالة وكلمة لا يعثرها التغيير على مرّ العصور. وعليه يثبت مدعى قانون السنن التاريخية^(٣٢).

وقفه نقدياً —

تردّ على نظرية السيد الشهيد هذه، وعملية استشهاد بالآيات المذكورة، جملة من الإشكالات:

أولاً: إن المدلول التطابقي لهذه الآيات، وكذلك منطوقها، هو وجود السنن الإلهية في الأمم السابقة. وإن الدعوة إلى الاتعاظ بهذه السنن لا تؤدي إلى استنتاج حصر ذلك بالسنن التاريخية.

ثانياً: إن وجود السنن في الأمم السابقة، وتأكيد القرآن على الإمعان فيها

نصوص معاصرة - السنة السابعة - العدد الثامن والعشرون - خريف ٢٠١٢ م - ١٤٣٣ هـ

وأخذ العبرة منها، لا يحمل دلالة تطابقية وتضمنية أو التزامية على ثبوت نظرية السنن التاريخية. وبعبارة أخرى: إن مؤدى وجود السنن في الأمم السابقة لا يدل على إثبات قانون السنن التاريخية.

ثالثاً: يبقى الدليل - في هذا الاستدلال القرآني - أعم من المدعى، ولا يثبت مع ثبوت السنن في الأمم السابق قانون حكم التاريخ.

رابعاً: لا يستفاد من استحالة التغيير في الكلمات الإلهية ثبوت السنن التاريخية وقانون حكم التاريخ في الظواهر التاريخية؛ لأن عدم التبديل في السنن الإلهية والكلمات الربانية هي سنة أعم من السنة التاريخية.

خامساً: لا علاقة للأدلة المذكورة في النصوص القرآنية على إثبات قانون السنن التاريخية في إطار المصاديق بنوع موضوع البحث، وهي خارجة عنه تخصصاً.

المحور الثاني: انعدام الاستثناء في سنن التاريخ —

هذا هو المحور الثاني الذي رأى السيد الشهيد من خلاله دلالة على وجود الطابع المصادقي للسنن التاريخية في القرآن الكريم، والمتمثل بانعدام الاستثناء في قانون التاريخ. فاستشهد لذلك بقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (البقرة: ٢١٤).

ذهب السيد الشهيد إلى أن هذه الآية هي دليل على قانون السنن التاريخية، فأخذ من خلال نصّها بيّن وجود طابع السنن التاريخية على شكل مصاديق. فاستنتج من انتفاء الاستثناء في السنة التاريخية قانون التاريخ، وتحكمه بالمجريات. كما عدّ مسألة تحقق النصر الإلهي سنة تاريخية، يسري عليها حكم التاريخ^(٢٣).

وقفه نقديّة —

ترد على هذا الاستدلال جملة من الإشكالات، وهي:
أولاً: ليس ثمة صلة بين دلالات الآية الثلاث - التطابقية، التضمنية، الالتزامية -،

نصوص معاصرة - السنة السابعة - العدد الثامن والعشرون - خريف ٢٠١٢ م - ١٤٣٣ هـ

أو ظهورها، وحتى دلالتها المفهومية، وبين مسألة ثبوت قانون السنن التاريخية؛ فإن موضوع البحث في هذه الآية يدور حول مسألة عدم دخول الجنة دون اختبار إلهي، ودون الشعور بالمعاناة. وعليه ليس هناك دلالة تطابقية أو منطوق في النص يدل على إثبات قانون السنن التاريخية في القرآن الكريم.

ثانياً: نصّ الآية الشريفة أعمّ من مدّعى السيد الشهيد في هذا الصدد. وليس هناك أيّ علاقة منطقيّة أو توضيح معقول بين نصّ الآية وثبوت السنن التاريخية.

ثالثاً: ليس موضوع الآية هو السنة التاريخية من حيث إثبات حكم التاريخ وسريانه، وإنما هي في صدد الإشارة إلى السنة الإلهية. وليس بالإمكان فهمها على أن المراد هو السنة التاريخية وفقاً للدلالة التطابقية والالتزامية.

رابعاً: يذكر السيد الشهيد هذه الآية دليلاً على الطابع المصادقي للقوانين والنواميس التاريخية، في حين ليس موضوع الآية المصادق والوجود الخارجي. وبناءً عليه لا يمكن إثبات قانون السنن التاريخية على نحو المصاديق من خلال الاستدلال بالآية المذكورة.

المحور الثالث: موقف الأنبياء من المترفين —

ينتقل السيد الشهيد إلى المحور الثالث من الاستدلال على مصاديق السنن التاريخية في القرآن الكريم، ويستشهد بآية تذكر موقف الأنبياء الرافض لعقيدة المترفين في المجتمعات، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ (سبأ: ٣٤ - ٣٥).

من وجهة نظر السيد الشهيد فإنّ هذه الآية دليل على وجود السنن التاريخية. وقد ذكر بأن هناك علاقة تطارد وتناقض بين موقع النبوة الاجتماعي في حياة الناس على الساحة التاريخية والموقع الاجتماعي للمترفين والمُسرفين^(٢٤).

وقفه نقدية —

يبدو أنّ استدلال السيد الصدر هنا - كسائر الاستدلالات السابقة التي ساقها

نصوص معاصرة - السنة السابعة - العدد الثامن والعشرون - خريف ٢٠١٢ م - ١٤٣٣ هـ

من أجل إثبات قانون السنن التاريخية في إطار المصاديق - لا ينهض بالمراد إطلاقاً. فليس مفاد الآية، من حيث الدلالة الالتزامية والمفهومية، دالاً على ثبوت القوانين التاريخية. وهو - حصراً - في صدد الإشارة إلى موضوع السنن الإلهية في مجال العلاقة الاجتماعية بين مقام النبوة ومقام المترفين. وبعبارة أخرى: إن حكم موقع البحث وموضوعه في الآية كالسالبة بانتفاء الموضوع، مقارنةً بمحلّ بحث السنن والنواميس التاريخية.

٣. السنن التاريخية مفهوماً ومصادقاً —

النمط الثالث لوجود السنن التاريخية ضمن النصّ القرآنيّ هو العرض المطروح والجامع بين المفهوم ومصادقه، والذي يمكن إدراجه تحت عنوان (الاستقراء التاريخي). حيث ذكر السيد الشهيد بأنّ القرآن، ومن خلال هذا النمط الثالث، يدعو إلى الاستفادة من الحوادث الماضية، وشحذ الهمم؛ لإيجاد استقراء للتاريخ؛ بغية التفتيش عن سنّة أو قانون تاريخي^(٢٥). وإليك الآيات المستشهد بها:

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ (محمد: ١٠).
قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ (يوسف: ١٠٩)

وغير ذلك من الآيات التي وردت في استدلال الشهيد الصدر.

وقفه نقديّة —

إن ما يستفاد من مدلول الآيات التطابقي، والمنطوق، هو السير في الأرض والنظر إلى عاقبة الأمور. فهي تحثّ على التدبّر ونوع من الاستقراء. لكنّ هذا الاستقراء لا يدلّ على الاستقراء التاريخي، وثبوت مفهوم ومصادق السنن التاريخية. وبناءً على ذلك فإنّ هذه الآيات لا تحمل دلالة تطابقية أو تضمنية أو التزامية على ثبوت الطابع المفهومي والمصادقي للسنن التاريخية. وإن هذا المفهوم لا يمكن استنتاجه حتّى من دلالة اللفظ على لازم خارج عن معنى الآيات.

نصوص معاصرة - السنة السابعة - العدد الثامن والعشرون - خريف ٢٠١٢ م - ١٤٣٣ هـ

رغم إمكانية استنتاج بعض القوانين والضوابط من موضوع السير في الأرض، ومشاهدة عاقبة الماضين، يبقى نص هذه الآيات بمنأى عن أي دلالة على إثبات قانون السنن التاريخية، ولا سيما في إطار المزج بين النظرية والتطبيق. وتأسيساً على ما مضى فإن جميع الاستدلالات التي ساقها السيد الشهيد بغرض إثبات قانون السنن التاريخية - في المحاور الثلاثة -، باطلة، بلحاظ الدلالات الثلاث، وكذلك الدلالة الالتزامية والمفهومية، وطبيعة النصوص وظهورها؛ حيث لا توجد علاقة منطقية وعلمية بين مدعاه وأدلتها. وبعبارة أخرى - وكما ذكرنا -: إن جميع الأدلة إنما هي أعم من المدعى.

ب. خصائص السنن التاريخية في القرآن الكريم —

المبحث الثاني الذي تطرّق إليه السيد الشهيد في معرض حديثه عن الفلسفة النظرية للتاريخ في القرآن هو موضوع خصائص السنن والقوانين التاريخية. ويتلخّص في ثلاث خصائص، هي:

١. المفهوم العام للسنن التاريخية في القرآن الكريم (الاطّراد) —

الميزة الأولى التي يذكرها السيد الشهيد لنماذج السنن التاريخية في القرآن هي صفة الشمولية والعموم، والاستمرارية التاريخية. حيث يعتقد بأن السنن التاريخية في القرآن الكريم لم تؤسّس على أساس الصدف، وإنما هي تسير وفق قوانين عامة وضوابط كلية، وإن لها طابعاً عاماً يفضي إلى طبيعتها العلمية، وطابعها الاستمراري. وجاء في استدلال السيد الصدر على هذا الموضوع جملة من الآيات القرآنية، منها^(٢٦):

قال تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا...﴾ (الأحزاب: ٦٢).

قال تعالى: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا...﴾ (الإسراء: ٧٧).

نصوص معاصرة - السنة السابعة - العدد الثامن والعشرون - خريف ٢٠١٢ م - ١٤٣٣ هـ

قال تعالى: ﴿وَلَا تُبَدِّلْ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ (الأنعام: ٣٤).

وقد رأى في هذه النصوص الشريفة دلالة على صفة الشمولية في السنن التاريخية، وأنها تضيف طابعاً علمياً على طبيعة القوانين والنواميس التاريخية.

وقفه نقديّة —

يلاحظ على استدلال السيد الشهيد بهذه الآيات الشريفة في إثبات صفة الشمولية للسنن التاريخية ما يلي:

أولاً: تفيد هذه النصوص القرآنية بدلالاتها وظهورها عدم التبديل والتحويل في السنن الإلهية وفي كلمات الله - عز وجل - ومعلوم أنه لا يمكن منطقياً استنتاج ثبوت صفة الشمولية للسنن التاريخية من هذا الموضوع بالذات.

ثانياً: ليس معنى استحالة التحويل والتبديل في السنة الإلهية ثبوت صفة الشمولية للقوانين التاريخية؛ لأن عدم التبديل في سنة الباري - عز وجل - هو أمر أسمى وأعلى من مسألة السنن التاريخية وتحولها. ثم ليس ثمة استلزام منطقي ودلالة التزامية بين الأمرين.

ثالثاً: لا توجد صلة منطقية أو التزامية بين نوعيّة موضوع الآيات المذكورة وبين موضوع صفة الشمولية المشار إليها؛ كي يذهب السيد الشهيد إلى الحكم بشمولية السنن التاريخية استناداً إلى ضرورة عدم التبديل في السنن الإلهية.

رابعاً: يدعي السيد الشهيد أن صفة الشمولية في السنن التاريخية تدلّ على الطابع العلمي في هذه السنن، لكنّه لم يفصح لنا عن طبيعة العلاقة المفترضة بين هذين الأمرين من الناحية المنطقية. وبعبارة أخرى: ليست صفة الشمولية هي مدلول الآيات بالتطابق والمنطوق، كي ينتج عنه الطابع العلمي.

خامساً: يصرّ السيد الشهيد على أنّ طابع هذه القوانين التاريخية هو طابع علمي، دون أن يذكر نوع هذا العلم. فهل أن طبيعة سنن التاريخ العلمية هي من سنخ العلوم التجريبية أم العلوم المنطقية أو الفلسفية؟

وبناءً عليه فإنّ ظهور هذه الآيات ودلالاتها لا تدلّ على صفة الشمولية للسنن

نصوص معاصرة - السنة السابعة - العدد الثامن والعشرون - خريف ٢٠١٢ م - ١٤٣٣ هـ

التاريخية. وكان ينبغي للسيد الشهيد أن يثبت صفة الشمولية للسنن التاريخية عن طريق الدلالات الالتزامية والمفهومية للنص القرآني. وهذا ما لم يتطرق إليه مطلقاً.

٢. السنن التاريخية في القرآن وسمتها الربانية —

الميزة الثانية المستقاة من حقيقة السنن التاريخية هي سمتها الربانية. فمن وجهة نظر القرآن تتمتع هذه السنن بصفة إلهية ومتصلة بمشيئة الباري - عز وجل -، وهي قانون من القوانين الإلهية. وقد رأى السيد الشهيد أنّ صفة سنن التاريخ الإلهية هي دليل على وجود الطابع الغيبي فيها؛ لأنّ الله يمارس قدرته من خلال هذه السنن التي لا تتغير أبداً، فهي تعبير عن الإرادة والحكمة الربانية.

نعم، ليس معنى إضفاء الصفة الربانية على السنن التاريخية هو نسبة الحادثة التاريخية نفسها إلى الله مع قطع الصلة عن بقية الحوادث، بحيث يتم عزل الحادثة عن سياقها الطبيعي، وربطها بالسما، بل هو بمعنى ربط السنّة التاريخية وربط أوجه العلاقات والارتباطات به - عز وجل -، وهو يجري حكمه في السنن عبر نافذة العلل والعوامل الطبيعية. وبناءً عليه فإنّ قوانين الطبيعة وقوانين التاريخ متصلة بالله - تبارك وتعالى - عن طريق العوامل والأسس الطبيعية، وعن الطريق ذاته يسري حكمه فيها. وبعبارة أخرى: ليس معنى القول بأنّ سنن التاريخ غير خارجة عن القدرة الإلهية هو أنها تتمّ دون عوامل وواسطة، وانحصار ذلك بالقدرة الإلهية^(٣٧).

يذكر أنّ السيد الشهيد لم يورد نصاً قرآنياً في معرض حديثه عن مفهوم الصفة الربانية في السنن التاريخية؛ كي يعتمد عليه، ويستنتج منه الدلالة المطلوبة على المدعى، وذلك على الرغم من أنّ القرآن زاخرٌ بالآيات المعنيّة بموضوع القدرة الإلهية ومدياتها.

٣. دور إرادة الإنسان في السنن التاريخية —

الحقيقة الثالثة التي تكشف عنها السنن التاريخية هي الإرادة والاختيار والحرية لدى الإنسان، والمؤثرة على مجرى تحولات وظواهر التاريخ. فقد رأى السيد

نصوص معاصرة - السنة السابعة - العدد الثامن والعشرون - خريف ٢٠١٢ م - ١٤٣٣ هـ

الشهيد أنَّ حرية الإنسان وإرادته لا تتعارض مع السنن التاريخية. وقال: إن الوهم بوجود التناقض بين نظرية السنة التاريخية ونظرية حرية الإنسان وإرادته هو من القضايا التي لفت إليها القرآن، فأكد على أنَّ المحور في تسلسل الأعداد والقضايا إنما هو الإنسان نفسه. ووفقاً لنصوص القرآن فإنَّ هناك مواقف إيجابية للإنسان تمثل حريته واختياره وتصميمه. وهذه المواقف تستتبع ضمن علاقات السنن التاريخية، وتستتبع معلولاتها المناسبة^(٢٨).

أمَّا الآيات التي يوردها الشهيد الصدر في هذا الصدد فهي:
 قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١).
 قال تعالى: ﴿وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ (الجن: ١٦).
 وحسب رؤية السيد الشهيد فإنَّ هذه النصوص تدلُّ على إرادة الإنسان وحرية في السنن التاريخية.

وقفه نقديّة —

لا يمكن استنباط دلالة تطابقية على دور إرادة الإنسان في القوانين التاريخية. نعم، مفاد الآية ومدلولها حرية الاختيار لدى الإنسان. لكن هذا الموضوع لا علاقة له بحرية الإنسان في السنن التاريخية، فهو لا يثبت هذا الأمر تحديداً. وبعبارة أخرى: إن الإنسان حرٌّ في تصرّفاته، إلّا أن مدلول هذه الآيات التطابقي وظهورها لا يوحى بثبوت حرية الإنسان وإرادته في السنن التاريخية.

ج. صيغ السنن التاريخية في القرآن —

وفقاً للسيد الشهيد فإنَّ صيغ السنن التاريخية في القرآن الكريم كانت قد تبلورت في ثلاث صيغ هي: (شكل القضية الشرطية)، (شكل القضية الفعلية الناجزة)، (السنن التاريخية المصاغة على صورة اتّجاه طبيعي). وإليك بعض التفصيل في ذلك:

نصوص معاصرة - السنة السابعة - العدد الثامن والعشرون - خريف ٢٠١٢ م - ١٤٣٣ هـ

١. السنن التاريخية في شكل القضية الشرطية —

الطبيعة الأولى لشكل السنن التاريخية في القرآن الكريم هي عبارة عن: صورة القضية الشرطية أو المشروطة. في هذا الشكل تتمثل السنة التاريخية في قضية شرطية تربط بين حادثتين على الساحة التاريخية، وتؤكد على العلاقة الموضوعية بين الشرط والجزاء، وأنه متى ما تحقق الشرط تحقق الجزاء، ونتيجته تحقق السنة التاريخية. يرى السيد الشهيد أنّ هذه الصياغة موجودة بكثرة في النصوص القرآنية، كما أنّ القوانين والسنن الطبيعية والكونية تزخر بها أيضاً، وعلى مختلف الساحات الأخرى. فقانون القرآن ينصّ على ضرورة وجود علاقة شرطية بين الحوادث التاريخية في معظم الأحيان^(٢٩).

وقد رأى الشهيد الصدر معنى الشرط هذا متوفراً في النصوص القرآنية التالية: قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١). قال تعالى: ﴿وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقاً﴾ (الجن: ١٦). عبراهتين الآيتين نفذ السيد الشهيد إلى الاستدلال على وجود القضية الشرطية في السنن التاريخية، فراح يحلّل السنن التاريخية بلسان القضية الشرطية^(٣٠).

وقفه نقديّة —

يؤاخذ على هذا الاستدلال بما يلي:

أولاً: إنّ لهذه النصوص الشريفة دلالة تطابقية على مسألة التغيير الذاتي، وما يتبعه من تحوّل على مستوى المجتمع. وقد بيّنت هذه القضية على شكل القضية الشرطية في صورة الشرط والجزاء. ولا يحتمل مفاد النصوص أمراً أبعد من ذلك.

ثانياً: إن استعراض السنّة التاريخية في صورة القضية الشرطية هو فرع لثبوت السنة التاريخية ذاتها. وكما أشرنا سابقاً فإن هذه الآيات لا تثبت موضوع السنن التاريخية، من حيث دلالتها التطابقية، كي يقال: إنّ هذه السنّة قد وردت على هيئة القضية الشرطية.

ثالثاً: لقد خرج السيد الشهيد تخصّصاً باستدلاله على القضية الشرطية في

نصوص معاصرة - السنة السابعة - العدد الثامن والعشرون - خريف ٢٠١٢ م - ١٤٣٣ هـ

الآيات عن محلّ البحث، وهو موضوع (حكم السنّة التاريخية)؛ لأنّ محلّ البحث فيها ليس هو القوانين التاريخية، كي يتسنى من خلاله إثبات الصيغة الشرطية للسنّة التاريخية.

وتأسيساً عليه فإنّ دلالة الآيات المذكورة - دلالة تطابقية أو تضمنية أو في ظهورها - على إثبات الصيغة الشرطية للسنّة التاريخية ليس بالأمر المجدي كثيراً، وحتىّ في حالة الاعتماد على الدلالة الالتزامية فإنّ السيد الشهيد لم يبيّن لنا العلاقة المنطقية بين هذه الآيات وصيغة سنن التاريخ الشرطية.

٢. السنن التاريخية في شكل القضية الناجزة —

صيغة القضية الناجزة والمتحقّقة هي الشكل الثاني للسنن التاريخية في القرآن الكريم. وهي قضية قطعية، بمعنى التحقّق العلمي. وليس للإنسان فيها أيّ اختيار وتحكّم، بل لا يمكن التعديل فيها أيضاً؛ لأنّ هذا النوع من القضايا يتكوّن في صيغة ناجزة وقطعية. فالقضايا القطعية تتحقّق في إطار الأمر القطعي من حيث الزمان والمكان. ويرى السيد الشهيد أنّه بالإمكان لمس القضايا الناجزة على صعيد السنن التاريخية في بعض الآيات القرآنية^(٣١).

وقفه نقديّة —

الملاحظ على السيد الشهيد في هذا الصدد هو عدم استشهاده بآية ذات دلالة تطابقية على وجود السنّة التاريخية في صيغة القضايا الناجزة، وإنّما اكتفى بمجرد طرح المدعى.

٣. الاتجاه الطبيعي في السنن التاريخية في القرآن —

الصورة الثالثة المقدّمة لموضوع السنن التاريخية في القرآن الكريم هي صياغة السنن التاريخية على شاكلة الاتجاه الطبيعي ضمن حركة التاريخ. وكان من جملة الآيات المستشهد بها في هذا الصدد قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ

نصوص معاصرة - السنة السابعة - العدد الثامن والعشرون - خريف ٢٠١٢ م - ١٤٣٣ هـ

الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ (الروم: ٣٠).

وقفه نقديّ —

الاستدلال بالآية المذكورة هو أحد أدلة السيد الشهيد على صيغة الاتجاه الطبيعيّ لحركة السنن التاريخية في القرآن الكريم^(٣٢).
إلاّ أنّ هذا الاستدلال يؤخذ بالإشكالات التالية:

أولاً: لم يقدم تعريفاً واضحاً لمفهوم الاتجاه الطبيعيّ في السنن التاريخية، الأمر الذي يترك لبساً في فهم الموضوع وتعريف المفهوم.

ثانياً: ينصّ مفاد الآية التطابقي وظهور نصّها على مسألة الدين الحنيف والفطرة الإلهية وعدم التبديل في خلق الله - عزّ وجلّ -، ولا تدلّ الآية على إثبات السنّة التاريخية، ومن ثمّ إثبات صياغة الاتجاه الطبيعيّ لها؛ إذ إنّ الكلام عن الاتجاه الطبيعيّ للسنّة التاريخية يستلزم ثبوت السنّة ذاتها من خلال الآية، والحال أنّها لا تحمل دلالة تطابقيّة على ثبوت السنّة التاريخية.

ثالثاً: لم يتطرق السيد الشهيد إلى إثبات الاتجاه الطبيعيّ للسنّة التاريخية من خلال الاستدلال بمفهوم الآية ودلالاتها الالتزامية، بل لم يقدم توضيحاً حتّى من خلال اللازم الخارجي.

نتائج البحث —

تمخّض عن دراسة نظريّة (السنن التاريخية في القرآن) ونقدها النتائج التالية:

١. إنّ أبرز الإشكالات الواردة على مضمون النظرية هو عدم تقديم تعريف واضح لمعنى القانون التاريخي. فلم يذكر الشهيد الصدر تعريفاً لذلك. فعده فرضية، ولم يُشِرْ حتّى إلى نوع الحكم النافذ في السنّة التاريخية.
٢. أمام نظرية السنن التاريخية في القرآن - بلحاظ الأدلة المنطقية - فرضيات استنبط منها السيد الشهيد نتائج قطعية. فمثلاً: هو يرى أن جميع الأحكام الإلهية في

نصوص معاصرة - السنة السابعة - العدد الثامن والعشرون - خريف ٢٠١٢ م - ١٤٣٣ هـ

القرآن حول السنّة الإلهيّة منطبقة تماماً على السنن التاريخيّة، وأنّ السنن التاريخيّة الواردة في القرآن هي دليلٌ على سريان حكم التاريخ. وبعبارة أخرى: لم يتطرّق السيد الشهيد إلى بيان العلاقة المنطقيّة بين السنن الإلهيّة والسنن التاريخيّة، فيعدّ جميعها مترادفاً ومشابهاً للبعض الآخر. وقد وردت الإشارة إلى ذلك خلال تحليل الآيات المستشهد بها في محلّه.

٣. لا تتمتع نظريّة السنن التاريخيّة في القرآن - والتي تدّعي إثبات حاكمية التاريخ من وجهة نظر القرآن - بالنسق المنطقيّ والأسلوب المنظم، من حيث طريق الاستدلال بالدلالة التطابقية والتضمّن ومفاد النصوص القرآنيّة وظهورها.

٤. إنّ معظم الآيات التي يوردها الشهيد الصدر في الاستدلال على نظريّة السنن التاريخيّة وحاكمية التاريخ كانت في الواقع خارجةً عن محلّ البحث، وتخصّص الموضوع المطروق، ولم يراعَ فيها موضع الخلاف.

٥. لم يقدّم السيد الشهيد دليلاً، ولو بالدلالة الالتزامية من مفاد الآيات، على قيام علاقة منطقيّة في إثبات حاكمية التاريخ ومجوريّته.

٦. الإشكال الأبرز في استدلالات السيد الشهيد هو انعدام السنخيّة بين الدليل والمدّعى. وكانت معظم أدلّته على إثبات حاكمية التاريخ في القرآن أعمّ من المدّعى. علماً أنّ ما ورد في هذه النتائج ليس هو بمعنى إلغاء قيمة القوانين في الظواهر التاريخيّة في القرآن، بل إنّ الآيات المستشهد بها لا تملك دلالة على هذا المعنى (حاكميّة التاريخ).

وقد يكون من الممكن إثبات حاكمية التاريخ في إطار عامّ، وفي المصاديق، وكذلك إثبات الخصائص العلميّة للسنن التاريخيّة، وصيغها في القرآن، من خلال الدلالة الالتزامية للآيات، لكنّ يبقى الموضوع بحاجةً إلى الدراسة والبحث المعمق والممنهج للنصوص القرآنيّة. وإنّ ما ذكرناه في هذا المقال هو عدم ثبوت حاكمية التاريخ على أساس (نظريّة السنن التاريخيّة)، للشهيد السيد محمد باقر الصدر.

الهوامش

(1) substantive or speculative philosophy of history.

(2) Analytical or critical philosophy of history.

(٣) بل إدواردز، مجموعة المقالات: الفلسفة والتاريخ: ٢؛ نوذري، فلسفه تاريخ، روش شناسي ومکاتب تاريخ نگاري: ٢٤ - ٢٥؛ سروش، فلسفه تاريخ: ٢٤ - ٢٥.

(٤) نوذري، فلسفه تاريخ: ٢٤ - ٢٥؛ مايكل استنفورد، در آمدي بر فلسفه تاريخ: ٢٢، ٢٤ - ٢٥.

(5) object.

(6) methodology.

(7) teleology.

(8) epistemologic.

(9) typology.

(١٠) للتوسع في موضوع الفلسفة النظرية والجوهرية للتاريخ، وفرقها مع الفلسفة التحليلية أو النقدية للتاريخ، انظر: السيد ضياء الدين مير محمدي، (واگرائي وتمايز فلسفه نظري تاريخ وفلسفه علم تاريخ)، فصلية الحوزة والجامعة، العدد ٤٢.

(١١) حسن حضرتي، تأملاتي در علم تاريخ وتاريخ نگاري إسلامي: ١١٩ - ١٢٢.

(١٢) للتوسع في موضوع الأسس العامة للفلسفة النظرية في التاريخ من وجهة نظر القرآن انظر: عزت الله رادمنش، مكتب های تاريخي وتجدد گرائي تاريخي، فصل مكتب تاريخي قرآن.

(١٣) مبدأ التوحيد في التاريخ هو بمعنى الاهتمام بمجموع الظواهر التاريخية في التحليل التاريخي وتدوين التاريخ، وعدم الاكتفاء بالجزئيات والحالات الفردية للظواهر، وكذلك النظر إلى كتابة التاريخ على أنها قضية أسمى من محيط الفرد والطبقة والقومية، فهذا هو مبدأ في الفلسفة العلمية للتاريخ.

(١٤) مبدأ التركيب في التاريخ من وجهة نظر القرآن هو بمعنى الاستعانة بالعلوم الساندة في عملية التحليل التاريخي للظواهر، وإشراك بعض العلوم، كعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا، وغير ذلك.

(١٥) يدل مبدأ محورية الناس في التاريخ من وجهة نظر القرآن على أن موضوع كتابة التاريخ في القرآن لا يقف عند الطابع التقليدي للكتابة - السلاطين والحروب -، بل الناس هم المحور والأساس في رصد التاريخ وتدوين أحداثه في القرآن الكريم.

(١٦) للتوسع في موضوع الأسس العامة للتدوين العلمي للتاريخ، أو أسس الفلسفة التحليلية أو النقدية في مجال التاريخ من وجهة نظر القرآن، انظر: عزت الله رادمنش، المصدر السابق، فصل مكتب تاريخي قرآن.

(١٧) تطرّق الشهيد الصدر إلى مباحث نظرية السنن التاريخية في القرآن في كتاب (المدرسة القرآنية).

(١٨) للاطلاع على تفسير الآيات راجع: العلامة الطباطبائي، تفسير الميزان.

(١٩) محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنية: ٥٣ - ٥٤.

نصوص معاصرة - السنة السابعة - العدد الثامن والعشرون - خريف ٢٠١٢ م - ١٤٣٣ هـ

- (٢٠) المصدر السابق: ٥٣ - ٥٤.
- (٢١) المصدر السابق: ٥٣ - ٥٥.
- (٢٢) المصدر السابق: ٦١ و٦٢.
- (٢٣) المصدر السابق: ٦٢ و٦٣.
- (٢٤) المصدر السابق: ٦٣ و٦٤.
- (٢٥) المصدر السابق: ٦٦ و٦٧.
- (٢٦) المصدر السابق: ٦٩ - ٧٠؛ محمد باقر الصدر، السنن التاريخية في القرآن الكريم: ٦٧ - ٦٨.
- (٢٧) المدرسة القرآنية: ٧١ - ٧٢؛ السنن التاريخية في القرآن الكريم: ٦٨ - ٧٠.
- (٢٨) المدرسة القرآنية: ٧٤ - ٧٦؛ السنن التاريخية في القرآن الكريم: ٧١ - ٧٢.
- (٢٩) المدرسة القرآنية: ٨٩ - ٩١؛ السنن التاريخية في القرآن الكريم: ٨٣ - ٨٥.
- (٣٠) المدرسة القرآنية: ٩٠ - ٩٢؛ السنن التاريخية في القرآن الكريم: ٨٣ - ٨٥.
- (٣١) المدرسة القرآنية: ٩٦ - ٩٧؛ السنن التاريخية في القرآن الكريم: ٨٨ - ٨٩.
- (٣٢) المدرسة القرآنية: ٩٦ - ٩٧؛ السنن التاريخية في القرآن الكريم: ٨٨ - ٨٩.

الشهيد محمد باقر الصدر رائد المشروع الوحدوي

د. محمد صادق مزيناني (*)
ترجمة: محمد عبد الرزاق

توطئة —

كان لهجمات الغرب على العالم الإسلامي انعكاسات عديدة، فانبأى المفكرون والعلماء لمواجهة هذه التحديات عبر مشروع (وحدة الأمة الإسلامية)، فدعوا كافة المسلمين إلى التضامن والاتحاد، بأذلين الجهود من أجل تحقيق هذا الهدف المقدس، فكتبوا ونشروا العشرات من الكتب والمقالات، وأقاموا جملة من المؤتمرات أيضاً.

وكنا قد تطرّقنا في مناسبات سابقة إلى جهود عدد من دعاة الوحدة الإسلامية. وهنا نودّ تسليط الضوء على شخصية أخرى سارت على المنهج ذاته؛ حيث كان الشهيد محمد باقر الصدر واحداً من دعاة الوحدة الحقيقيين. فهو - كسائر المصلحين والمفكرين في العالم الإسلامي - كان يحسّ بالمعاناة وتمزّق المجتمع الإسلامي وانقسام المسلمين على أنفسهم، فبقي الهمّ يراوده في إصلاح حال المسلمين. فوظف جميع الإمكانيات المتاحة من أجل تحقيق هذا الهدف السامي، مستعيناً بجميع قدراته العلمية والعملية في نيل المراد. فكانت أولى الخطوات مقالة في مجلة (الأضواء) تحت عنوان (رسالتنا يجب أن تكون قاعدة للوحدة)، حيث دعا من خلالها علماء الدين والأمة الإسلامية إلى التكاتف والأخوة، مذكراً بأسس الوحدة ودوافع التفرقة،

(*) باحث إسلامي.

فحدّر الأمة الإسلاميّة من مخاطر الفرقة والانشقاق.

ومنذ ذلك الحين وحتى أواخر عمره الشريف ظلّ حريصاً على هذا الهدف المنشود، داعياً رجال الدين الآخرين إلى العمل على تحقيقه، وجعل موضوع (تاريخ الوحدة) أحد دروس المناهج في الحوزة^(١).

يرى الشهيد الصدر أنه ينبغي على الحوزويين أن يتعاملوا مع (مشروع الوحدة) بوصفه ظاهرة تاريخيّة، وأن يعملوا على دراستها؛ للاطلاع على السوابق ونقاط القوة والضعف فيها، وعلى ما انتهجه دعاة الوحدة في الماضي^(٢)؛ كي يؤدّوا رسالتهم الدينيّة على أتم وجه.

لم يبارح هذا الهدف المقدّس ذهن الشهيد الصدر طرفة عين أبداً. وحين كان محاصراً في أواخر أيامه من قبل البعثيين أصدر ثلاث رسائل صوتية خاطب بها الشعب العراقيّ، ودعا خلال خطابه الأخير جميع أطراف الشعب، من شيعة وسنة، وعرب وأكراد، إلى تحمّل المسؤولية في خضم الأوضاع المتدهورة، والاتحاد صفّاً إلى صف في مواجهة الظلم والاستبداد. وقد جاء في خطابه: «وإني مذ عرفت وجودي ومسؤوليتي في هذه الأمّة بذلت هذا الوجود من أجل الشيعيّ والسنيّ على السواء، ومن أجل العربي والكردّي على السواء، حيث دافعت عن الرسالة التي توحدّهم جميعاً، وعن العقيدة التي تضمّمهم جميعاً، ولم أعشْ بفكري وكياني إلاّ للإسلام، طريق الخلاص وهدف الجميع»^(٣).

نعم، لم يقتصر جهد السيد الصدر على إصلاح وتنمية المجتمع الشيعيّ فقط؛ لأنّه كان مصلحاً ومجدّداً بمعنى الكلمة. فالمصلح الإسلاميّ لا يمكنه تجاهل سائر المسلمين، مهما كان انتماءه ومذهبه. وهذا ما فهمه الكتّاب من المسلمين وغيرهم حيث نعتوا السيد الشهيد بأنّه أحد دعاة الوحدة الإسلاميّة، كما جاء على لسان (جويس وايلي) في كتابها (الحركة الإسلاميّة لشيعة العراق)، فكتبت تقول: «لم تتحصر حركة الشهيد الصدر في العراق في المكوّن الشيعيّ، فهو صاحب فكرة راسخة، وحركته جزء من الظاهرة الإسلاميّة التي نشاهدها في مختلف البلدان الإسلاميّة، كما أنّ كتاباته لا تحمل أيّ صبغة طائفية»^(٤).

نصوص معاصرة - السنة السابعة - العدد الثامن والعشرون - خريف ٢٠١٢ م - ١٤٣٣ هـ

أما الكاتب الإنجليزي (بيكي) فكان قد عقد في كتابه (تجديد القانون الإسلامي) مقارنةً بين فكر السيد الشهيد السياسي وكتابات الإمام الخميني، ثم خصَّص فصلاً عن التضامن الإسلامي وتاريخه، واصفاً الشهيد الصدر بالمصلح المؤمن بوحدة المسلمين. وكان هذا الكاتب قد بحث في مؤلفات الشهيد الصدر - (فلسفتنا)، (اقتصادنا)، (البنك اللاربوي في الإسلام)، و(الأسس المنطقية للاستقراء) -، ونقدها. وتوصَّل في المحصلة إلى أن هذه المؤلفات دليل قاطع على دفاع الشهيد الصدر عن مبدأ الوحدة الإسلامية؛ لأنه اعتمد في كتاباته على مصادر الشيعة والسنة على السواء^(٥).

حقيقة مفهوم الوحدة —

تصوّر البعض أنّ معنى (الوحدة الإسلامية) هو اختيار أحد المذاهب الإسلامية زعيماً لسائر المذاهب، ودعوة الفرق الأخرى إلى اتّباعه والانصياع لقراراته، أو أن يتم دمج جميع المذاهب فيما بينها، بأن تستخرج المشتركات، وتلغى الاختلافات^(٦).

ومعلوم أنّ مراد العلماء والمصلحين ومفكرّي الإسلام من مفهوم الوحدة الإسلامية ليس هو المعنى الأول، ولا الثاني أيضاً؛ ذلك لأن هذا النوع من الوحدة - كما يعبر أحد المفكرين المصلحين - غير ممكن عقلاً، وغير مناسب عملياً^(٧).

إن المراد من مؤدّى الوحدة الإسلامية هو التقارب ما بين أتباع المذاهب الإسلامية، واتحادهم في مواجهة أعداء الإسلام، مع الحفاظ على كيان واستقلالية كلّ طائفة^(٨).

وبما أن هذا المعنى هو ملاكنا في تفسير الوحدة الإسلامية لن تكون هناك تناقضات أو تناقضات مع الوحدة في أبحاثنا وكتاباتنا عن المذهب. من هنا كان العديد من دعاة الوحدة - أمثال: مير حامد حسين الهندي، العلامة شرف الدين، كاشف الغطاء، العلامة الأميني، العلامة محسن الأمين، الإمام الخميني، والشهيد الصدر -، وخلافاً للسابقين، يرون أنّه لا ضير على الوحدة من الخوض في المسائل الخلافية ونشرها، بل هي قضية ملحة أيضاً، طالما أنها تنتهج المنهج العلمي، وتراعي الأخلاق الإسلامية، وتحترم مقدّسات الآخرين، أو أنّ الضروري من ذلك الالتزام بما رسمه

نصوص معاصرة - السنة السابعة - العدد الثامن والعشرون - خريف ٢٠١٢ م - ١٤٣٣ هـ

الإسلام لنا في دعوة غير المسلمين إلى الإسلام: ﴿وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥). فبالمعرفة والفهم الصحيح لعقائد بعضنا البعض يمكن التغلب على البغضاء والمهاترات والافتراءات، وتحقيق الوحدة الحقيقية.

وتأسيساً على ذلك فإن كان السيد الشهيد قد كتب (فدك في التاريخ)، وتناول خلاله قضية فدك التاريخية، واستدل على حق فاطمة عليها السلام، أو أثبت حق علي عليه السلام بالخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، وردّ على الشبهات المطروحة، أو أكد على دور الأئمة عليهم السلام ونضالاتهم ضدّ الحكام (دور الأئمة في الحياة الإسلامية)، أو بحث وحقق في موضوع الإمام المهدي عليه السلام (بحث حول المهدي)، أو درس موضوع الحكومة الإسلامية في الفكر الشيعي (الإسلام يقود الحياة)، وغير ذلك من الأمثلة، فإن جميع هذه الكتابات والأبحاث لا تتعارض مع أصل الدعوة إلى الوحدة؛ كي يدعي بعض الكتاب، أمثال: شبلي ملاط، أنّ الصدر يفرّق بين الإسلام الشيعي والإسلام العام^(٩)، أو أن هذه المؤلفات تتناقض مع خطابه الأخيرة.

ويُضخ من محصلة كلام هؤلاء أنّهم لا يمتلكون تصوّراً صحيحاً عن مفهوم الوحدة الإسلامية. فهم لم يطالبوا الشهيد الصدر بالامتناع عن تناول عقائد الشيعة وحسب، بل طالبوه بالاعتراف بعقائد الطرف الآخر. لذا جاء في نقد الكتاب (فدك): «لكنّ السيد الصدر لم يتعرّض في كتابه لشرعية خلافة الشيخين، وإنما ذكرهما باحترام»^(١٠).

وقد صرح الشهيد الصدر في هذا الكتاب بأنّ حرية البحث لا تتعارض مع مبدأ الوحدة، طالما أنها تراعي الشروط والحيثيات^(١١).

المنطلق الصحيح للوحدة —

بات العالم اليوم محموماً بعقد الاتفاقيات والمعاهدات بين الدول والشعوب، فالمصالح السياسية والثقافية والاقتصادية بحاجة إلى الاتحاد، على أنّ منطلقات هذه الاتفاقيات ليست واحدة، فبعض يتّحد على أساس العرق واللون، وبعض على أساس اللغة، وهكذا دواليك.

نصوص معاصرة - السنة السابعة - العدد الثامن والعشرون - خريف ٢٠١٢ م - ١٤٣٣ هـ

وبعض المعاهدات قد تكون سياسية أو اقتصادية، أو قد تخشى دولة تعدي الدول الأخرى عليها فتعقد معاهدات دفاعية مع دول حليفة لها؛ حيث إن اتفاقيات الدفاع المشترك في عصرنا الحاضر هي نموذج آخر للاتحاد والمعاهدة.

لا شك أن جميع هذه الأشكال والدوافع ستؤدي إلى خلق نوع من التضامن والاتحاد. لكن هذا النوع من الوحدة ليس هو الاتحاد الراسخ من وجهة نظر الشهيد الصدر، ففي أي لحظة قد يتلاشى، أو يتعارض مع مصالح أخرى أهم فلا تبقى له من باقية. بل إن الشراكة الدينية والإيمانية هي أبرز وأقوى الدوافع والمنطلقات التي تحفز الشعوب على الوحدة والتضامن فيما بينها^(١٢).

يعقد الشهيد الصدر مقارنة خلال دراسته بين منطلقات الوحدة في الإسلام وبين رأي المدارس الوضعية، كالرأسمالية والماركسية. وقد رأى أن منطلقات الإسلام هي الأسمى والأنبل بينها، وقال بأنه، وعلى الرغم من اتحاد المجتمع الرأسمالي في الظاهر، وانطلاق هذه الوحدة من مبدأ المصالح الشخصية والحزبية، إلا أن صورة هذه الوحدة قد تتلاشى؛ بمجرد وقوع طارئ، وتعارضه مع المصلحة الضيقة، وسرعان ما يقع الخلاف وتتسع الهوة بين الأفراد. وهنا يتضح أن الوحدة المزعومة لم تكن إلا سراباً زائلاً. ولعل أبرز أمثلة ذلك هزيمة فرنسا أمام الألمان، حيث دبّ التنازع في جسدها في أخطر مرحلة تمرّ بها، فخسرت كل شيء خلال ساعات قلائل^(١٣).

كما أشار الشهيد الصدر في هذا الصدد إلى المجتمعات المنحرفة والفاشية، وكذلك الماركسية، فذكر بأن وحدتها أيضاً ليست وحدة أصيلة راسخة؛ لأنها قائمة على إلغاء القيم الإنسانية، يسيرها الجبر والقسر، وليس الاختيار، وإن الدافع وراءها هو ديكتاتورية الدولة، وليس إحساس الشعب وإرادته. وهذا النوع؛ لأنه غير مرتكز على جذور ذاتية، لن يدوم طويلاً. لكنّ الوحدة الإسلامية هي من النوع المتأصل والراسخ. وقد علّل الشهيد الصدر ذلك بطبيعة الدافع الذي يقف وراءها، وهو الحاجة الروحية الملحة التي تربط بين الأفراد، وتجمعهم على المحبة والوئام. وليس هناك عنصر يتمتع بهذه الخاصية سوى الدين. فالوحدة الدينية تتبع من القلب، ولها جذور تاريخية أيضاً، ومهما كانت مصالح الأفراد والأحزاب والفئات فإنها لن تتزعزع؛ لأنها

الوحدة المنطلقة من مبدأ راسخ يؤمن به الجميع^(١٤).

عندما نلقي نظرة على صفحات التاريخ سنجد أنّ هذه الوحدة أكثر عمقاً من سائر الدوافع وأقواها؛ لأن الصلة الدينية بين الأفراد هي السبب في خلق هكذا وحدة وتضامن، تسخر من أجلها جميع دوافع الوحدة، بحيث تجد الفرد يضحّي بوجوده من أجل أخيه المسلم. وعلى العكس لو حصل الخلاف في المعتقد فإنك تجد الهوة تتسع حتّى بين الأب وابنه، ليس على مستوى العلاقة الحميمية والحنان، بل يتعداها إلى المواجهة في ساحة الحرب والمنازلة. وحروب صدر الإسلام زاخرة بهذه النماذج. وهكذا في الوقت الحاضر، حيث قد يؤدي الاختلاف في العقيدة داخل الأسرة الواحدة إلى مقتل أحد أفرادها.

تتمتع الوحدة الدينية بعراقة وصلابة قلّ نظيرها. فحتّى الصهاينة عندما عزموا على احتلال فلسطين، وإنشاء دويلتهم، أكّد زعمائهم على عامل الوحدة الدينية من أجل الظفر بالمراد. وهنا يضرب الشهيد الصدر هذا المثال تحديداً عن مجموعة من الأفراد لا تربطهم مع بعضهم الآخر مشتركات في الوطن أو اللغة أو الثقافة والتقاليد، جاؤوا من أنحاء العالم، ومن مختلف القارات، وهدفهم واحد، هو أن يكونوا لأنفسهم كياناً مستقلاً يقوم على أساس الدين والمعتقد، وليس على سواه. ولذا سعوا جاهدين إلى إضفاء الصبغة الدينية على جميع معالم وجودهم، متّخذين من هذا العنصر المشترك رمزاً لهم^(١٥).

مبادئ الوحدة—

يزعم بعض العلماء من الشيعة والسنة أن المذاهب التي تقتصر خلافاتها على الفروع هي وحدها المشمولة بموضوع الوحدة، كالشافعية والحنفية والحنبلية، وهم الذين بإمكانهم الوقوف جنباً إلى جنب في مواجهة التحديات. أمّا بالنسبة للمذاهب التي تختلف مع بعضها على نطاق الأصول فلا يمكنها الاتحاد بأيّ حال من الأحوال. وكما يقول أحد العلماء الكبار^(١٦) فإنّ الأصول من وجهة نظر هذه الجماعة هي عبارة عن منظومة مترابطة، أو كما يعبر الأصوليون: الجزء كالكلّ، فإذا اعتراه

خللٌ أخلّ بالكلِّ أيضاً. وعليه فإذا تعرّض أصل الإمامة في التشيع، أو خلافة الخلفاء، إلى الرفض فإنّ الوحدة لا مجال لها مطلقاً.

ورداً على شبهة هذه الجماعة حدّد المصلحون ودعاة الوحدة حدود الوحدة وميادينها، ومنها: إن المسلمين يلتقون جميعاً في جملة من الأصول، والعديد من الأحكام العملية. فالجميع يوحد الله، ويشهد بنبوّة محمد ﷺ، ومؤمن بوجود الجنة والنار و...، وإن كتاب الجميع هو القرآن، وقبلتهم الكعبة، وهم لا يختلفون في صلاتهم وصيامهم وحجّهم وزكاتهم وغير ذلك من الفروض، سوى على مستوى الجزئيات البسيطة. ثم إنّ عدوّهم مشترك دائماً.

من المؤكّد أن من شأن هذه الميادين المشتركة أن تكون أساساً لقيام الوحدة الراسخة بين المسلمين. وعليه ليس هناك دليلٌ على وصف أصول المذاهب بالمنظومة المترابطة، بل لدينا الدليل على عكس ذلك. ولعلّ سيرة الصحابة، ولا سيما عليّ عليه السلام، وسيرة علماء السنة والشيعة على مر التاريخ، هي خير دليل وخير درس في ذلك. وهنا يؤكّد الشهيد الصدر على أن قادتنا، وفي مقدّماتهم الإمام عليّ عليه السلام، بذلوا قصارى جهودهم من أجل الحفاظ على الوحدة والتضامن والاتّحاد^(١٧).

على الرغم من اختلاف الصحابة بعد الرسول ﷺ في العديد من الأحكام والقضايا، كالخلاف على زعامة المسلمين، وغير ذلك من المسائل الفرعية، كالمرح أو الغسل في الوضوء، أو النزاع الدائر حول الإرث في الزواج المؤقت، فإنّ ذلك كلّ لم يؤثّر على وحدتهم وتعاضدهم. فكان الجميع يصلي خلف إمام واحد. وهذا هو دين عليّ عليه السلام. فعلى الرغم من أنّه لم يتوان أبداً عن المطالبة بحقه، وبذل كل ما في وسعه من أجل إحياء أصل الإمامة، لم يرفع شعار (إما جميعها أو لا أريدها) أبداً. بل على العكس من ذلك بقي متعاوناً مع الجميع. وهذا ما لفت إليه في إحدى رسائله إلى مالك الأشتر، عندما تطرّق إلى اختلاف المسلمين حول الخلافة، وتخليه عنها لصالح غيره، فقال: «...فأمسكت يدي، حتّى رأيت راجعة الناس عن الإسلام، يدعون إلى محق دين محمد ﷺ، فخشيتُ إنّ لم أنصر الإسلام وأهله أنّ أرى فيه ثلماً أو هدماً، تكون المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولايتكم، التي إنّما هي متاع أيام قلائل، فنهضت في

تلك الأحداث (مع أبي بكر) حتى زاح الباطل وزهق»^(١٨).

من هذا المنطلق يترك الإمام عليه السلام الاعتراض جانباً، ويعمل على مساعدة خلفاء زمانه، فيحضر صلاة الجماعة، ويقدم العون والمشورة لهم. بل نجده أحياناً يتصرف كمستشار عسكريّ تماماً، كما أن أصحابه عليه السلام كانوا يتقبلون بعض المناصب لدى الخلفاء؛ عملاً بتوصياته^(١٩).

تطرق الشهيد الصدر في خطابه الأخير إلى موضوع الحرب المفروضة على إيران من قبل العراق، فقال: «وأريد أن أقولها لكم، يا أبناء عليّ والحسين، وأبناء أبي بكر وعمر: إنّ المعركة ليس بين الشيعة والحكم السنّي، إنّ الحكم السنّي الذي مثله الخلفاء الراشدون، والذي كان يقوم على أساس الإسلام والعدل، حمل عليّ السيف للدفاع عنه؛ إذ حارب جندياً في حروب الردّة تحت لواء الخليفة أبي بكر...»^(٢٠).

لقد كان هدف الشهيد الصدر من استعراض العلاقات المتبادلة بين عليّ عليه السلام والخلفاء، وطبيعة سيرته عليه السلام، هو تقديم نموذج عمليّ للمسلمين، ولا سيما رجال الدين، وتفنيداً للقول القائل باستحالة إقامة اتحاد بين الشيعة والسنة؛ لأن سلوك عليّ عليه السلام وأصحابه مع الخلفاء لم يكن سلوكاً فردياً، وحالة خاصّة بهم^(٢١)، فهل يمكن أن يدّعي أحدهم أن تعاون الإمام وأصحابه مع الخلفاء كان بداعي الخوف أو التقيّة؟^(٢٢)

وبعد تذكيره بسيرة عليّ عليه السلام وتعامله مع الخلفاء يصل الشهيد الصدر إلى هذه النقطة، فيقول: «هذا خطّ عامّ سار الأئمة عليهم السلام كلّهم عليه...»^(٢٣).

لقد حرص الأئمة عليهم السلام على دعوة الناس إلى المشاركة في الفعاليات الجماعية للمسلمين، كالحج وصلاة الجمعة وصلاة الجماعة، مع التأكيد على التزام الأخلاق الإسلامية في التعامل مع أتباع المذاهب الأخرى^(٢٤). كما أنهم من جهة أخرى وقفوا موقفاً حازماً إزاء الفكر المتطرّف والمتعصّب لدى بعض الشيعة^(٢٥). بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك، فعندما كان المجتمع الإسلاميّ يتعرّض لبعض التحديات التي تمس هيبة الإسلام، وتعجز الحكومة من معالجة المشكلة، تجد الأئمة عليهم السلام في الطليعة؛ من أجل التصدي للعدو وإعادة الأوضاع إلى نصابها. فمثلاً: عندما أرسل ملك الروم رسالة إلى

عبد الملك بن مروان، وعجز الأخير عن الردّ، انبرى له الإمام السجاد عليه السلام، وكتب الردّ عليها^(٢٦).

كذلك في عهد هشام بن عبد الملك عندما عازمت حكومة الروم على نزع السيادة والاستقلال عن الدولة الإسلامية - ولو في الظاهر -، وفرض العملة الرومية في أسواق المسلمين، حضر الإمام الباقر عليه السلام، واقترح على هشام ضرب العملة الإسلامية^(٢٧).

يضيف الشهيد الصدر على هذه الأدلة استشهاده بسيرة علماء السنة والشيعة، والعلاقة الطيبة التي كانت تجمعهم في السابق، فيستنتج وجوب المساندة ودعم الحركات الإسلامية من قبل جميع المذاهب الأخرى، كما حدث عندما أفتى كبار علماء السنة بالجهاد مع الحركات الشيعية والعلوية: «هناك علماء من أكابر علماء السنة أفتوا بوجوب الجهاد وبوجوب القتال بين يدي ثوار آل محمد عليه السلام»^(٢٨).

وعلى سبيل المثال: كان أبو حنيفة قد أفتى في بادئ الأمر بوجوب الجهاد والمشاركة في الثورات العلوية، كما اشترك بنفسه في إحداها^(٢٩). وهذا هو دين علماء السنة والشيعة على مرّ التاريخ.

خلال الأعوام ١٩١٤ - ١٩١٨م، وعندما دخل البريطانيون الأراضي العراقية، واحتلوا البصرة، كان موقف علماء الشيعة واضحاً بالوقوف إلى جانب الحكومة السنية، وأفتوا بالجهاد ضدّ المحتل^(٣٠). كما أنّ بعضاً منهم كان قد حضر في ساحة المعركة أيضاً.

يقول الشهيد الصدر في هذا الصدد: «إن الحكم السني الذي كان يحمل راية الإسلام قد أفتى علماء الشيعة - قبل نصف قرن - بوجوب الجهاد من أجله، وخرج مئات الآلاف من الشيعة، وبذلوا دمهم رخيصةً من أجل الحفاظ على راية الإسلام، ومن أجل حماية الحكم السني، الذي كان يقوم على أساس الإسلام»^(٣١).

يذكر أنّه كان من بين المشاركين في سوح القتال نخبة من كبار الشخصيات الدينية، أمثال: السيد مصطفى الكاشاني، وابنه السيد أبو القاسم الكاشاني، والسيد محمد تقي الخوانساري، وشيخ الشريعة الإصفهاني، والسيد

علي الداماد، والسيد محسن الحكيم، والسيد محمد حسين كاشف الغطاء، والشيخ النائيني.

لقد كان رأي جميع هؤلاء هو تقديم الحكومة المسلمة على غير المسلمة تحت أي ظرف كان. وبما أن الصراع بين العثمانيين والإنجليز على السلطة في العراق فإن واجب الشيعة والسنة هو الدفاع عن الحكم العثماني تحديداً.

كان الشهيد الصدر قد تنبّه لقضية الشيعة والسنة قبل أن يثيرها الاستعمار وحزب البعث في العراق بشكلها الطائفي؛ من أجل تفريغ الحركة الإسلامية من محتواها، فقال: «إنّ الحكم الواقع ليس حكماً سنّياً، وإنّ كانت الفئة المتسلطة تنتسب تاريخياً إلى التسنن؛ فإن الحكم السنّي لا يعني حكم شخص واحد ولد من أبوين سنّيين، بل يعني حكم أبي بكر وعمر، الذي تحدّاه طواغيت الحكم في العراق اليوم في كلّ تصرفاتهم، وهم ينتهكون حرمتهم»^(٣٢).

يرى السيد الشهيد أنّ حكام العراق لا يسيرون على نهج عليّ وعمر، وأنهم انتهكوا حرمة عليّ وعمر، فاستبدلوا الشعائر الدينية بالخمور والفجور، ومارسوا أشدّ أنواع الظلم والطغيان ضدّ الشعب، ثم عمدوا إلى احتكار السلطة عشائرياً، فعدّوا وقتلوا.

هكذا استرسل الشهيد الصدر في خطابه، حتّى ختم بدعوة الشيعة والسنة إلى الاتّحاد والتضامن من أجل القضاء على حكم البعث، وإزالة هذا الكابوس عن صدر العراق^(٣٣).

السبل الكفيلة بتحقيق الوحدة —

بعد بيان مفهوم الوحدة ومبادئها نصل هنا إلى طرح هذا السؤال: لماذا تلاشت الوحدة بين المسلمين على الرغم من وجود كلّ هذه المشتركات بين المذاهب الإسلامية؟ فما هي الدوافع والموانع للوحدة؟ وما هو السبيل إلى تحقيقها فعلاً؟ يستعرض الشهيد الصدر هيبة المسلمين واقتدارهم في السابق تحت ظلّ الوحدة والتضامن، ثم ينتقل إلى البحث عن أسباب تلاشي وحدة المسلمين.

نصوص معاصرة - السنة السابعة - العدد الثامن والعشرون - خريف ٢٠١٢ م - ١٤٣٣ هـ

وقد رأى أنّ البداية كانت بسبب ابتعاد المسلمين عن فحوى الإسلام الأصيل، والعودة إلى الجاهليّة والتخلّف.

وهنا يلفت إلى أنّ الاستعمار والنزعة الصليبية هما المثير لهذه الفكرة الرجعية؛ من أجل التسلط على العالم الإسلاميّ. ورغم أنّ الكلام عن الدوافع والعوامل المساعدة على خلق التفرقة هو من القضايا الملحة، وأنّ دراسة مجريات التحوّل الداخليّ للمجتمع الإسلاميّ والعالم الإسلاميّ من الوحدة إلى التنازع - ولا سيما على الصعيد السياسيّ - لها ما لها من العبر والدروس المفيدة، وتؤكد لنا نصّاً كيف كان المسلمون أعزّاء مقتدرين في وحدتهم، وكيف أصبحوا متأخّرين ضعفاء في انشقاقاتهم، فإنّ ما يعيننا هنا هو ما هي السبل الكفيلة بتحقيق الوحدة، وإنّ كنا قد نشير خلال البحث إلى الدوافع وأسباب التفرقة الحاصلة عرضاً^{٣٤}

تعزيز الأواصر بين علماء المسلمين —

إن أحد السبل المساعدة على خلق التفاهم والوحدة بين المسلمين هو تعزيز الأواصر بين علمائهم ومفكّريهم. وهذا ما حرص عليه الشهيد الصدر. فكما كان مهتماً بشأن علماء الشيعة في العراق وخارجه، وعلى اتّصال دائم بهم، ويعمل على نشر أفكاره الإصلاحية بشكل مباشر أو غير مباشر، كذلك كان مع علماء أهل السنّة أيضاً. ولعل خطابه الأخير خير دليل على ما يربطه من علاقات طيبة مع علماء إخواننا السنّة. وهذا ما أكّده الدكتور محمد التيجاني خلال زيارته الشهيد الصدر، حيث ذكر أنّه دخل على السيد الشهيد في بيته، وكان مكتظّاً بطلاب العلم، حيث قام سماحته مرحّباً به وبمن معه، ثم عرّفنا للحضور وأجلسنا إلى جنبه، وسرعان ما سأله عن أحوال تونس والجزائر وعلمائها البارزين، أمثال: الطاهر بن عاشور...^(٣٤).

لقد كان الشهيد الصدر على علاقة وطيدة مع إخواننا السنّة، إلى حدّ أن العديد منهم كانوا يستشيرونه في ما أشكل عليهم^(٣٥).

يذكر أن (جويس وايلي)^(٣٦)، وخلال دراستها أفكار الشهيد الصدر، أكّدت في نتائجها على شمولية الحركة في العراق، ومشروع زعيمها (الشهيد الصدر)

نصوص معاصرة - السنة السابعة - العدد الثامن والعشرون - خريف ٢٠١٢ م - ١٤٣٣ هـ

الوحدوي. وإليك نبذة من حديثها: يتّضح من طبيعة الحركة الإسلامية في العراق، وتعاونها مع الحزب الإسلامي، ووجود علاقات طيبة بين رواد الحركة الإسلامية السنيّة، مثل: الشيخ أمجد الزهاوي والشيخ عبد العزيز البدر في بغداد والنجف، والأكبر من هذا تأسيس حزب تحت عنوان (الحزب الإسلامي) في العام (١٩٦٠) من قبل الإخوان المسلمين وحزب الدعوة، وكان الدكتور نعمان عبد الرزاق السامرائي رئيساً له، والسيد الشهيد مهدي الحكيم ممولاً له^(٣٧).

ويذكر الكاتب عبد الرحيم حسن أنه سأل الأستاذ السامرائي - وهو من مؤسسي الحزب الإسلامي - عن الكلام المتقدم، فقال: لم تكن القضية ماليّة، وإنما إجراء التعاون بين الجانبين، وهذا ما وافق عليه كلّ من السيد مهدي الحكيم والشهيد الصدر^(٣٨).

لا شك أنّ لهذه الأنشطة دوراً كبيراً في مدّ جسور الثقة وتعزيز الأواصر بين المسلمين. وليس هذا ممّا يؤيّد كبار المراجع - الحكيم والصدر - وحسب، إنّما هو من مدعاة سرور للجميع.

ويحدونا الأمل في أن تستمرّ هذه المبادرات من قبل علماء ومفكرّي الشيعة والسنة؛ كي يكون من الممكن تحقيق ما هو أهمّ أيضاً.

إحياء الشخصية الإسلامية —

من المؤكّد أنّ ابتعاد المسلمين عن مبادئ الإسلام الأصيل، وتغلغل الخرافات والبدع، هي من جملة العوامل المؤثرة في خلق الفتن والتفرقة بينهم. فما دام المسلمون يحافظون على هويّتهم وشخصيتهم الإسلامية، ويعملون بتعاليم الإسلام في جميع مفاصل حياتهم، فإنّهم سيبقون موحّدين، يتقدّمون إلى الأمام بكلّ عزّة واقتدار. لكن الابتعاد عن الإسلام وتعاليمه النيرة، وتغلّب الأهواء عليهم، سيؤدّي - بطبيعة الحال - إلى استضعافهم وتخلفهم. وعليه فإذا كان المسلمون يفكّرون في المجد والرفعة، كما في السابق، فلا بدّ أن يعودوا إلى الإسلام، ويعملوا على إحياء الهوية الإسلامية.

نصوص معاصرة - السنة السابعة - العدد الثامن والعشرون - خريف ٢٠١٢ م - ١٤٣٣ هـ

وكان الشهيد الصدر في أولى مقالاته المنشورة في مجلة (الأضواء) قد بحث في موضوع الحركات التحررية، وتوصل هناك إلى أنّ سرّ نجاح كلّ حركة يكمن في ثلاثة شروط:

١. أن يكون لديها المبدأ الصالح، فيكون المحفز في العمل الثوري.

٢. أن يدرك الناس حقيقة هذا المبدأ.

٣. الإيمان بالمبدأ، وأن يسير الجميع على نهجه^(٣٩).

وبعد أن يتناول تفاصيل هذه الشروط يذهب الشهيد الصدر إلى تقييم واقع الحركات الإسلامية من خلالها، مؤكداً على أنّ الإسلام هو المبدأ والدافع الرصين في الحركات الإسلامية. وعليه فإذا كان المسلمون قد سكتوا عن مطامع المستعمر والحكومات المستبدة فإنّ ذلك لأنهم لم يدركوا معنى الإسلام بشكل صحيح، ولم يعملوا بتعاليمه. لذا يتحتم على علماء الدين في بلاد المسلمين أن يدركوا مفهوم الإسلام جيداً، ثم ينقلوا هذه المعرفة إلى الناس، وأن يوضّحوا لهم القيمة العليا في الإسلام، ويدعوهم إليها؛ كي يستعيد المسلمون بريق هويّتهم، ويعملوا من أجل العالم الإسلامي، ويدافعوا عن مقدّساتهم^(٤٠).

يؤكد السيد الشهيد في مقال آخر، تحت عنوان: (رسالتنا والشخصية الإسلامية)، على أن الشخصية الإسلامية لم تتضرر وحسب، وإنّما قد تلاشت بالكامل، فبدل أن يتكلّم الإنسان المسلم كلامه ويسير في طريقه بات يقتبس منهاجه من الآخرين. لقد بات المسلم مهتماً بهويّته العربية والفارسية والتركية و... أكثر من اهتمامه بهويّته الإسلامية. وهذا ما نتج عنه التفرقة، وتسلب الحكومات المستبدة^(٤١).

يعتقد الشهيد الصدر بأنّ ثمة ترابطاً وثيقاً بين وحدة المسلمين ومسألة إحياء الشخصية الإسلامية. فلو أيقن المسلمون حقيقة الإسلام الأصيل ونظموا حياتهم وفقاً لتعاليمه الحنيفة، فلا شك أنّ الوحدة ستعود إلى المجتمع المسلم. انطلاقاً من ذلك يدعو الشهيد الصدر المسلمين إلى التحلي بثلاثة عناصر، هي: الروح؛ العقل؛ الأخلاق، والتي تستمد ترابطها من منشأ العقيدة والإيمان؛ كي تتحوّل (التيارات الفكرية) إلى (تيار

موحّد) و(صورة متناسقة)؛ لأنّ الاسلام لا يقف عند حدود جغرافيّة أو قوميّات بعينها، بل تمتدّ حدوده إلى جميع أنحاء العالم وسائر الشعوب المختلفة. فإذا تبلورت الشخصية الإسلاميّة فعلاً فستكون فاعلية الإسلام قويّة في إطار تيّار موحّد للأفكار، يدوي صداه في جميع أنحاء العالم الإسلاميّ، وسيمنح الوجود الإسلاميّ صورة متناسقة وموحّدة لا نظير لها. لكنّ المؤسف أنّه ليس هناك وجود للشخصيّة الإسلاميّة في الوقت الحاضر، بل هناك وجود للتيّارات الفكريّة المتنافرة، ينتمي كل واحد منها إلى مجتمع ما، الأمر الذي يشكّل حاجزاً بين المسلمين، يصدّ عن نيل المعرفة بالحقائق، وينتج عنه ولادة كيانات متعدّدة للإسلام، يفصل بعضها عن البعض جملة من الحواجز الوهميّة، وهو وهم مصطنع لا يؤيّد الإسلام أبداً^(٤٢).

ورغم تعاون العديد من الحكومات المتظاهرة بالإسلام مع الاستعمار في إثارة الفرقة والفتن بين المسلمين، وباتت التبعية تستحوذ على أفكارها وقراراتها، فإنّ الأمل موجود في نهضة أبناء الإسلام في العراق وإيران وسائر الدول الإسلاميّة، ممّن كشف حقيقة هذه الألاعيب وزيفها، وما زال مؤمناً برقيّ الثقافة الإسلاميّة وتفوّقها أمام الثقافة الغربيّة الهزيلة، أولئك الذين يدركون حقيقة الغرب الساخرة والمستترة خلف قناع حقوق الإنسان ومسمّيات الديمقراطية والحرية، ففقدوا العزم على إحياء هويّتهم الإسلاميّة، وإرشاد الآخرين إلى تحقيق ذلك أيضاً.

فجذوة هذه الشخصية الإسلاميّة ما زالت حاضرة في بعض الدول الإسلاميّة لدى بعض المسلمين الحقيقيين. وإنّ أهم رسالة تقع على عاتق أرباب الفكر الإسلاميّ في بلاد المسلمين هو العمل على إحياء هذه الشخصية^(٤٣).

العدو المشترك —

ما زل المستعمر يبحث عن سبيل للسيطرة على الدول الإسلاميّة وشعوبها. فمن شعاراتهم القديمة مقولة: (فرّق تَسُدْ). وفعلاً وظّفوا هذا الشعار في إسقاط الخلافة العثمانية، وقسّموا العالم الإسلاميّ إلى أشلاء متناثرة. وهنا يرى الشهيد الصدر بأن الاستعمار والإمبريالية هي من أبرز عوامل التفرقة، وأهم الحواجز التي تعيق مشروع

وحدة المسلمين. وقد أكد ﷺ على أن أعداء الإسلام - ولا سيما الاستعمار والحكومات الجائرة - وخطورة (الابتعاد عن الإسلام الأصيل) هما قضيتان في عرض واحد؛ لأنه إذا كان الابتعاد عن الإسلام، وتغلغل الخرافات والبدع، هي السبب في وقوع الفتن والتفرقة، فإن منشأ هذا الابتعاد في الأغلب هو الاستعمار والأيدي الخائنة في الدول الإسلامية^(٤٤).

لقد كانت وما زالت تعاليم الإسلام الحقّة تشكّل تهديداً لأعداء الإسلام، ولا سيما على صعيد الفكر السياسي الإسلامي؛ لأن فكر الإسلام يرفض مبدأ الاستعمار والقوة بجميع أشكاله، ويحث المسلمين على الثورة ضدّ المستعمرين، فهو يطالب بتحرّر الشعوب على جميع الأصعدة الاجتماعية من القيود والعبودية. ومن واجب المسلمين دعم الحركات التحرّرية بما يستطيعون من دعم ومساعدة^(٤٥). لقد سعى عدو الإسلام إلى إبعاد المسلمين عن معين التعاليم الربّانية، مستبدلاً إيّاها بالثقافة الغربيّة، التي لعبت دوراً كبيراً في القضاء على هويّة الأمّة الإسلامية. ومن المؤسف أن أعداءنا نجحوا إلى حدٍّ ما في تحقيق هدفهم. فلقد استطاع الاستعمار تسيير الحياة المعاصرة - في العديد من المجتمعات الإسلامية - على أسس فكرية وعاطفية تدعو إلى الرجوع عن الإسلام، والعودة إلى الجاهليّة. ولقد أحيا بذلك العديد من أصنام الجاهليّة بين أفراد بعض المجتمعات الإسلامية. وبهذا تمكّن من صدّهم عن فهم الإسلام بصورته الصحيحة^(٤٦).

لقد أسهمت بعض الأفكار والنزاعات - كالقوميّة - في إحياء وإثارة النزعات القومية والعرقية، والعزف على نغمة الاستعمار القديمة في فصل الدين عن السياسة. وقد أكّد الشهيد الصدر كثيراً على دور الاستعمار في غزو المسلمين ثقافياً، وحدّر أبناء الإسلام من خطورة الانزلاق وراء الفكر الغربيّ، داعياً العلماء إلى شحذ الهمم في مقارعة هذا الخطر: «غزا العالم الإسلاميّ سيل جارف من الثقافات الغربيّة... فكانت تمدّ الاستعمار إمداداً فكرياً متواصلاً في معركته التي خاضها للإجهاز على كيان الأمّة... وكان لابدّ للإسلام أن يقول كلمته في معترك هذا الصراع المرير، وكان لابدّ أن تكون الكلمة قوية عميقة، صريحة واضحة، كاملة شاملة للكون والحياة

والإنسان والمجتمع والدولة والنظام؛ ليتاح للأمة أن تعلن كلمة (الله) في المعترك، وتتادي بها...»^(٤٧).

كان الشهيد الصدر قد عقد العزم على محاربة الأفكار الغريبة الملهدة، فكتب (فلسفتنا)، وأثبت من خلاله تفوق الإسلام على سائر المدارس الفكرية. وكان على تعاون تام مع (جماعة العلماء)، التي تأسست للغرض ذاته^(٤٨). ونظراً إلى دائرة عمل هذه الجماعة المحدودة فكّر الشهيد الصدر، وبمعية طلابه، بتأسيس (حزب الدعوة الإسلامية)^(٤٩)؛ كي يتسنى له العمل على نطاقات أوسع في مقارعة المستعمر والأيدي الخائنة. وعلى الرغم من خروجه عن تنظيم حزب الدعوة فيما بعد^(٥٠)، إلا أنه ظلّ يواصل نضاله السياسي. وكان يطالب رجال الدين أن لا يكتفوا بالنهي عن صفائر المنكرات، وينسوا الكبائر؛ لأنه كان يعتقد بأن هيمنة الأجنبي على المسلمين هي من أقبح المنكرات؛ لأنه يستبيح الثروات المادية والمعنوية، وطالما أن هذا الوضع هو السائد فلا أمل في ظهور مجتمع إسلامي واقعي^(٥١). ومن هذا المنطلق كان يحثّ طلبة الحوزة على قراءة حياة العلماء المناضلين ضد الاستعمار^(٥٢)، معتبراً النضال ضده هدفاً من أهداف الدولة الإسلامية^(٥٣).

لقد دعا الشهيد الصدر علماء الشيعة والسنة والشعب العراقي إلى الالتحاق بالحركة الإسلامية، والانتفاض في وجه حكومة البعث، مؤكداً على أن قضية الشيعة والسنة هي من مؤامرات البعثيين والاستعمار: «إن الطاغوت وأولياءه يحاولون أن يوحوا إلى أبنائنا البررة من السنة أن المسألة مسألة شيعة وسنة؛ ليفصلوا السنة عن معركتهم الحقيقية ضدّ العدو المشترك»^(٥٤). لم يكن الشهيد الصدر ليكتفي بإطلاق الشعارات والتهافتات، بل كان يقدم حلولاً وآليات، فرأى أنّ السبيل الوحيد هو اتحاد الشيعة والسنة، والنضال على جميع المستويات. من هنا أفتى بتحريم العمل مع حزب البعث وحكومته^(٥٥)، ونهى المؤمنين عن الصلاة خلف الأئمة المتعاونين مع البعث^(٥٦).

عندما تأمر الاستعمار والعملاء؛ من أجل الوقوف في وجه الثورة الإسلامية في إيران وكانوا بين الفينة والأخرى يطلقون بعض الحملات الإعلامية الهادفة إلى الانتقاص من الثورة، وصرف الأنظار عنها، وتجنيد المسلمين السير على نهجها،

وطبّلوا بأنّ إراقة هذه الدماء غير جائزة، كان الشهيد الصدر أوّل المبادرين، فأصدر بياناً لفت فيه إلى أنّ الذين يدافعون في إيران عن الإسلام والمسلمين، ويقتلون، هم شهداء، وأنّ الله سيحشرهم مع الإمام الحسين عليه السلام ^(٥٧).

أثارت هذه الفتوى الرعب لدى قادة البعث، واعتبروها تهديداً لمستقبلهم في الحكم. وقبل أن يفيقوا من هذه الصدمة أصدر الشهيد الصدر أمره بالثورة المسلّحة ضدهم ^(٥٨)، فجاء خطابه الأخير يدعو السنّة والشيعة إلى الاتحاد، كما اتحدوا في الحرب العالميّة الأولى، مطالباً الأمة الإسلاميّة بالوقوف ضدّ حكومة البعث وجهاً لوجه: «يا إخوتي وأبنائي، من أبناء الموصل والبصرة، من أبناء بغداد وكربلاء والنجف، من أبناء سامراء والكاظمية...، من أبناء العراق في كلّ مكان: إني أعاهدكم بأنّي لكم جميعاً، ومن أجلكم جميعاً، هدي في الحاضر والمستقبل: فلتتوحّد كلمتكم، ولتتلاحم صفوفكم تحت راية الإسلام، ومن أجل إنقاذ العراق من كابوس هذه الفئة المتسلّطة، وبناء عراق حرّ كريم، تحكمه عدالة الإسلام...» ^(٥٩)؛ فإنّ حاصل الوحدة والنضال هو سقوط حزب البعث وحكومته: «...وتسوده (العراق) كرامة الإنسان، ويشعر فيه المواطنون جميعاً - على اختلاف قومياتهم ومذاهبهم - بأنهم إخوة، يساهمون في قيادة بلدهم، وبناء وطنهم، وتحقيق مثلهم الإسلاميّة...» ^(٦٠).

هنا خطّط حزب البعث بالتعاون مع أسياده للقضاء على الشهيد الصدر؛ بذريعة (الوقاية من خميني العراق)، والسيطرة على الحركة الإسلاميّة في العراق، فاستشهد محمد باقر الصدر مع أخته المناضلة المؤمنة على يد مجرمي حزب البعث.

الاحترام المتبادل —

إن من جملة السبل الكفيلة بتحقيق الوحدة هو الابتعاد عن الإساءة، والتزام الأخلاق في الكلام والتأليف؛ إذ ينبغي على علماء المذاهب احترام عقائد الطرف المقابل، وأن يتكلّموا ويكتبوا بما لا يجرح مشاعر الآخرين؛ لأنّه (ربّ حربٍ جنيت من لفظه) ^(٦١).

نصوص معاصرة - السنة السابعة - العدد الثامن والعشرون - خريف ٢٠١٢ م - ١٤٣٣ هـ

لقد كان الشهيد الصدر حريصاً كل الحرص على احترام مشاعر أهل السنّة، سواء على الصعيد العلمي والفقهّي أو غيره، وكان يرفض رفضاً قاطعاً المساس بعقائدهم. لذا طالما كان يذكر الخلفاء باحترام تامّ في كتاباته. فعلى سبيل المثال: عندما يذكر اسم الخليفة الأوّل في أولى صفحات كتاب (فدك أهل البيت) كان يعقب عليه بعبارة (رضي الله عنه)^(٦٢). وهذا ما درج عليه في جميع صفحات الكتاب أيضاً^(٦٣).

يذكر السيد حسين الصدر في هذا الصدد: لم تكن أبحاثه تحمل أي نوع من المشاحنات أو الطعن بإخواننا السنّة، بل كانت الصورة المشرقة للمذهب والفكر الإسلاميّ الأصيل. ولهذا السبب كان سماحته يحظى بقبول علماء أهل السنّة، حتّى كانوا يستشيرونه في بعض الحالات المستعصية^(٦٤).

يذكر أنّ السيد الشهيد، وفي خطابه الأخير، كان قد وصف الخلفاء بالراشدين^(٦٥)، وهو يخاطب السنّة والشيعة على حدّ سواء: «فأنا معك يا أخي وولدي السنّي بقدر ما أنا معك يا أخي وولدي الشيعي... إن الطاغوت وأوليائه يحاولون أن يوحوا إلى أبنائنا البررة من السنّة أنّ المسألة مسألة شيعة وسنّة»^(٦٦).

لا شك أنّ هذا النمط من الخطاب الصادر من مرجع بوزن الشهيد الصدر قد أدّى دوراً كبيراً في توحيد الصفوف، وتعزيز الوحدة بين أبناء المجتمع.

إذا رجعنا إلى التاريخ وجدنا أن من بين المؤلّفات الناجحة والمجدية هي تلك التي تراعي جانب الأخلاق، ولا تتخطّى حدود الاعتدال، من قبيل: كتاب (المراجعات)، وسلوك الشهيد الصدر مع الدكتور التيجاني، الذي قال: «وأنست بحديثه... وتيقّنت أيضاً من أنّ الشيعة مسلمون، يعبدون الله وحده، ويؤمنون برسالة نبينا محمد ﷺ»^(٦٧).

بعد أن كان التيجاني يميل إلى عقائد الوهابية تأثر هذه المرّة بأسلوب واع وودّي، جعله يشكّك في عقائده السابقة، ويتيقن بإسلام الشيعة، حتّى قال: «وأحسست بأنّي لو بقيت معه شهراً واحداً لتشيّعت؛ لحسن أخلاقه وتواضعه وكرم معاملته، فلم أنظر إليه إلّا وابتسم، وابتدرني بالكلام، وسألني: هل ينقصني

شيء...»^(٦٨).

يذكر أنّ التيجاني كان قد أقام عند الشهيد الصدر أربعة أيام سألته خلالها عما بدا له من شبهات، من قبيل: قول «أشهد أنّ علياً وليّ الله» في الأذان، ومراسم العزاء، وتزيين قبور الأئمة والأولياء بالذهب والفضّة، والتوسّل والتبرّك، وعن عقيدة الشيعة بالصحابة.

فما كان من السيد الشهيد إلّا أن يجيب عن أسئلته بالدليل والبرهان، دون التعرّض والمساس بعقائد الآخرين^(٦٩).

من المؤسف أن يكون هناك من العلماء المتطرّفين من يرى من واجبه أن يزيد على بيان آراء مذهبه أو تفنيد الرأي الآخر، فيظهر مشاعره وعواطفه الجياشة تجاه مذهبه، وكأ أنّه في ساحة حرب، ويدعو من ينازله؛ فإنّ هذا النوع من الأساليب لن يعود علينا إلّا بالتعصّب وزيادة الخلافات وإثارة الضغائن والعداء. وبالتالي ينشأ النزاع تلو النزاع. ولعلّ أحداث الماضي المؤلمة هي خير شاهد على ذلك.

ينبغي لنا السير على نهج علي^{عليه السلام} مع الخلفاء، وكذلك تعامل الأئمة^{عليهم السلام} مع أبناء عصرهم، وصولاً إلى سيرة العلماء الكبار، أمثال: السيد شرف الدين، والشيخ كاشف الغطاء، وغيرهما من المصلحين والمجدّدين الشيعة، وكيف كانوا يتعاملون مع علماء المذاهب الأخرى. فعلى سبيل المثال: كان مالك بن أنس - إمام المذهب المالكي - على علاقة طيبة مع الإمام الصادق^{عليه السلام}، وكان معجباً بتعامل الإمام معه^(٧٠). لم يكن الإمام^{عليه السلام} مهتماً باحترام علماء أهل السنّة وحسب، بل كان يقف بحزم في وجه الجماعة المتعصّبين من الشيعة ضد السنّة^(٧١)، وكان يرفض إثارتهم عن طريق الإساءة إلى الخلفاء. وفي إحدى المرات استشهد بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (الأنعام: ١٠٨)، ونهى الشيعة عن السبّ، ولعن من يعصي أمره في ذلك^(٧٢).

يعقب الشيخ الصدوق على هذه الرواية فيقول: «والتقية واجبة، لا يجوز رفعها إلى أن يخرج القائم^{عليه السلام}، فمن تركها قبل خروجه فقد خرج عن دين الله، ودين الإمامية، وخالف الله ورسوله والأئمة»^(٧٣).

نصوص معاصرة - السنة السابعة - العدد الثامن والعشرون - خريف ٢٠١٢ م - ١٤٣٣ هـ

هذا هو دين عامة نواب الأئمة وخواصهم. فقد روي عن الحسين بن روح نائب الإمام الحجّة عليه السلام أنه كان يمنع الإساءة إلى أهل السنة، حتى أنه ذات مرة لعن أحد أتباعه معاوية، فطرده، ولم يقبل شفاعته أحد في حقه^(٧٤).

تأسيس مؤتمر إسلامي عالمي —

لطالما دعا العديد من العلماء المجتدين ودعاة الوحدة إلى فكرة توحيد المسلمين في مؤتمر عالمي خلال موسم الحج، فهي المناسبة التي تجمع العديد من المسلمين وعلمائهم من أجل أداء مراسم الحج العبادية السياسية، وإن توظيف هذا الحدث الكبير بات قضية ملحة، ولا سيما في وقتنا الحاضر.

من هذا المنطلق يعتقد الشهيد الصدر أن من واجب المسلمين التعرف إلى بعضهم البعض في هذه الأجواء؛ تعزيزاً للتقارب الفكري والمعنوي والأخوي بينهم. ولابد لهم أن يحضروا في هذا المؤتمر الكبير كأمة واحدة، يتباحثون همومهم؛ بحثاً عن الحلول^(٧٥).

يتساءل الشهيد الصدر عقب تفسيره وتحليله ظاهرة الحج: لماذا لم يحقق المسلمون هذه الأهداف في مراسم الحج؟ لكنه يرد فيقول: إذا كان المسلمون لم يتمكنوا من تحقيق أهداف هذا الاجتماع الكبير فإن ذلك لا يقلل من شأن الحج؛ لأن هذا الخل بسبب الظروف السياسية والفكرية الحاكمة، وليس بسبب الحج^(٧٦).

إن مما يؤسف له أن الحج لا يقام كما أمر الإسلام. فالمسلمون غير ملتفتين إلى فلسفة الحج وأهداف هذه الفريضة العظمى. كما أن الحكومات العميلة ترى بقاءها في إبقاء الناس على جهلهم. لذا تحاول هذه الحكومات إثارة بعض القضايا المضللة؛ كي لا يلتفت المسلمون إلى أسرار الحج الواقعية، فيقودهم إلى الاتحاد والانتفاض في وجه الظلم.

ويرى الشهيد الصدر أنه إذا وعى المسلمون أداء هذه الفريضة كما يجب، وابتعدوا عن مسببات التفرقة والانشقاق والعداء، فلا شك أنهم سيحققون جميع تلك الأهداف.

نصوص معاصرة - السنة السابعة - العدد الثامن والعشرون - خريف ٢٠١٢ م - ١٤٣٣ هـ

في هذا المضمار دعا السيد الشهيد إلى تأسيس اجتماع من أجل نيل المستحقّات الكامنة وراء الحجّ. فذكر أنه لو كان للمسلمين مجلسٌ يعقد كلّ عام بهذه المناسبة؛ بعيداً عن الأغراض والأهواء الخاصّة، لكان بإمكانهم تداول قضايا دينهم ودنياهم؛ بحثاً عن الحلول لمشاكل حياتهم. ولعل عبارة: «بعيداً عن الأغراض والأهواء الخاصّة» هي تعريضٌ بالمؤتمرات التي كانت تقام من قبل الحكومات المستبدّة، ولا يُدعى إليها سوى وعّاظ السلاطين؛ فإن هكذا نوع من الاجتماعات لا يمكنها تحقيق الأهداف المنشودة.

لقد كانت التعصّبات القومية على أساس اللغة أو العرق واللون سبباً في تفرّق المسلمين، وهي السبب في ظهور بعض الاتجاهات، من قبيل: (القومية العربيّة)، (القومية التركيّة)، (القومية الإيرانيّة)، التي استقطبت الشعوب، دون أن يدركوا حقيقة الإسلام وموقفه من ذلك. فقد كانت العصبية القومية في العصر الجاهليّ، ورفضها الإسلام، واستبدالها بكلمة الإسلام وتعاليمه الحقّة. يقول الرسول الأكرم ﷺ: «أيها الناس، إن ربّكم واحد، وإن أباكم واحد. كلّكم من آدم، وآدم من تراب. لا فضل لعربيّ على عجميّ، إلّا بالتقوى»^(٧٧).

يعتقد الشهيد الصدر أن إثارة النزعات القومية والعرقية إنّما هي من مؤامرات الاستعمار. وكان يرى أن الأمة الإسلاميّة لا تتوحّد على أساس العرق واللون؛ لأن الوحدة الإسلاميّة تشمل جميع الأعراق والأمم. كما أنها لا تتوحّد على أساس جغرافيّ؛ لأن أفراد الأمة هم من شتّى البقاع، ولا على لغة بعينها؛ لأنها تشمل شعوباً متعدّدة اللغات^(٧٨).

كان بنو أمية قد دعموا الحسّ العربيّ على حساب الطابع الإسلاميّ. وهذا ما بدأت تتعامل به بعض الدول الإسلاميّة في القرون الأخيرة على نحو كبير، فأخضعوا الإسلام وقيمه الفدّة للعصبية القبلية. وإنّما هذا عودةٌ إلى الوراء، إلى عصور الجاهليّة. ولا بدّ من الالتفات إلى هذا الموضوع وإصلاحه من قبل المفكرين الإسلاميين. وكما ذكرنا فإن الشهيد الصدر كان ينطلق من مبدأ الإسلام، بدلاً من القومية ونزعتها. فكان يرى نفسه مسؤولاً أمام جميع مسلمي العالم، ولم يكن

للعرب والعجم والشيعة والسنة معنى لديه. فعندما سُئل ذات مرة: هل أنت عربي؟ فلماذا تدافع عن الفرس والثورة الإيرانية؟ كان رده: لديّ مسؤولية تجاه جميع المسلمين، ولا بدّ أن أعمل بواجبي إزاء الجميع^(٧٩).

وإبان حصار منزل الشهيد الصدر من قبل البعثيين زاره في إحدى المرات كل من (زيد حيدر) - من أعضاء حزب البعث وقيادة الثورة -، وعبد الرزاق الحبوبي - محافظ النجف -، وعندما جلسوا عنده أخذ يحدثهم عن دور الحوزة وعلماء الشيعة في تأسيس الحركات الإسلامية وقيادتها، معترضاً في الوقت نفسه على قمع سلطات البعث للشباب وعلماء الدين، فظلّ الاثنان يحدّقان في السيد الشهيد بكلّ ذهول وصدمة دون تكلم، حتّى بادر الحبوبي مخاطباً صاحبه: انظر إلى كلام هذا الرجل العظيم ومنطقه البليغ...، يجب علينا أن نجعل منه عالماً وزعيماً روحياً لجميع البعثيين^(٨٠)، فضحك الطلاب، وابتسم الشهيد الصدر أيضاً، فسأل الحبوبي: لماذا تضحكون؟ فقال السيد الشهيد: أنا عالم للمسلمين، ولست مرجعاً للبعثيين^(٨١).

وفي مناسبة أخرى جاء الشيخ عيسى الخاقاني إلى السيد الشهيد، مبعوثاً من قبل (صدام) شخصياً؛ لي طرح عليه مشروعين، هما:

١- إن عرب الأهواز يقبعون تحت وطأة ظلم الحكومة الإيرانية، وعلينا أن نفكر بطريق لخلّصهم.

٢- لماذا يبقى قدر الحوزة العلميّة في النجف تابعاً لإشراف الإيرانيين وسيطرتهم؟ فعلياً أن نؤسّس لحوزة عربيّة، وأنت زعيمها الأوّل^(٨٢).

فجاء في ردّ الشهيد الصدر: «إنّ ميزة النجف الأشرف التي يعتزّ بها النجف هي أنّها جامعة مفتوحة لكلّ الجنسيات والقوميات، يدرس فيها العربيّ والفارسيّ وغيرهما، فما معنى أن تكون الحوزة عربيّة فقط؟!»، ثمّ عرّج السيد الشهيد على الموضوع الآخر بامتعاض وغضب، مخاطباً مبعوث صدام، فقال: «هذا الكلام عارٍ من الصحة، فعرب خوزستان يعيشون في ظلّ دولة إسلاميّة، لهم ما لغيرهم، وإنّما أنت تختلق ذلك بسبب عدائك لإيران، ثمّ حال عرب خوزستان أفضل بكثير من عرب العراق. كان عليكم أن تفكّروا بتحرير الشعب العراقيّ من قيود البعث الأمريكيّ

قبل التفكير بعرب خوزستان، عليكم أن تحزنوا على عرب العراق الذين سلبت ثرواتهم من قبل حكومتكم الجائرة، وتركتمهم بالفقر والعراء»^(٨٣).

لقد أثبت الشهيد الصدر - عبر مواقفه الشجاعة - أنَّ وحدة الإيمان والعقيدة هي مبدأ الأمة الإسلامية، خلافاً لمنهج الأنظمة الغربية وسياستهم هذه الأيام. وإن لهذا المبدأ دوراً كبيراً في خلق التقارب بين الأفراد، وكأنهم إخوة؛ لأن وحدة الأهداف والطموحات والاتفاق في العمل على نيلها هي سبب في اتصال القلوب مع بعضها البعض.

بالإضافة إلى ذلك كان الشهيد الصدر مهتماً أيضاً بالإفادة من مصادر وكتب المذاهب الأخرى، والسعي إلى نشر الكتب التقريبية بينهم، والتعريف بالتشيع ونقل صورته الحقيقية إلى سائر المذاهب الأخرى، مع التأكيد على معالم الوحدة الواقعية، والردّ على الشبهات المخلة بالتواصل والتفاهم مع الآخر، وغير ذلك من النشاطات الوحدوية التي كان يعنى بها السيد الشهيد، وهي بحاجة إلى بحثٍ مستقل بذاته.

تأثير الشهيد الصدر بالعلامة شرف الدين —

من الطبيعي أن يتأثر كلّ مصلح مجدّد بأفكار العظماء والمصلحين المعاصرين له، ويفيد من طروحاتهم. وليس الشهيد الصدر مستثنى من هذه القاعدة. وهناك من الأدلة والشواهد ما يؤيد تأثره - على صعيد مشروع الوحدة - بالعلامة شرف الدين أكثر من غيره؛ حيث إن طريقته في الدعوة إلى الاتحاد هي ذاتها طريقة السيد شرف الدين. فالاثنتان يؤكّدان على احترام عقائد أهل السنّة وعلمائهم، وأنه لا بدّ من تقديم عقائد الشيعة بطريقة علمية، وبكلّ عقلانية أيضاً، كما يتفقان على طبيعة السبل الكفيلة بتحقيق الوحدة والتقريب.

لقد كان السيد الشهيد كثير الاهتمام بمؤلفات السيد شرف الدين، وخصوصاً تلك التي تعنى بموضوع الوحدة الإسلامية، حتى أنّه قد أصدر أوامره بطباعتها ونشرها مجدّداً، وكان أيضاً يقدّم لبعضها، ويذكر بجهود السيد شرف الدين ونضاله ضد الاستعمار، وكان يصفه بالأنموذج القدوة على طريقة مشروع

نصوص معاصرة - السنة السابعة - العدد الثامن والعشرون - خريف ٢٠١٢ م - ١٤٣٣ هـ

الوحدة. يذكر أنه كان قد طلب من الشيخ حسين آل ياسين - أحد طلابه - أن يعمل تحقيقاً موسعاً لكتاب (المراجعات) وينشره، وبعد أن تمّ العمل أثنى عليه وشكره كثيراً، فأجابه الشيخ حسين أنّ ذلك لم يكن بالإمكان لولا اهتمامك ومساعدتك إياي^(٨٤).

من كتب السيد شرف الدين الأخرى كتاب (النص والاجتهاد). وكان قد تناول فيه بحثاً معمّقة حول القضايا الخلافية بطريقة علمية؛ من أجل تفنيد بعض الشبهات. وهذا ما أفاد منه الشهيد الصدر تماماً، ولا سيما على صعيد المنهجية والأسلوب المتبع في التعريف بالتشيع وردّ الشبهات^(٨٥).

ويذكر أنه عندما كان منزل الشهيد الصدر محاصراً، وجاء (زيد حيدر) (عبد الرزاق الحبوبى) لزيارته، ودار الحديث بين الثلاثة، ركّز الشهيد الصدر هنا على دور الحوزات العلمية وعلماء الشيعة في الحركات الثورية ومقارعة الاستعمار، ثم تطرّق أيضاً إلى الحديث عن العلامة شرف الدين ونضاله ضد الاستعمار الفرنسي^(٨٦).

ويضاف إلى ذلك استشهاده بكلام السيد شرف الدين أو مواقفه، ومنها: ردّه على موضوع التبرّك بقبور الأولياء وتقبيّلها، حيث استشهد بموقف العلامة شرف الدين مع عبد العزيز آل سعود: «فإن السيد شرف الدين لما حجّ بيت الله الحرام في زمن عبد العزيز آل سعود، كان من جملة العلماء المدعوّين إلى قصر الملك؛ لتهنّئته بعيد الأضحى - كما جرت العادة هناك.. ولما وصل الدور إليه، وصافح الملك، قدّم إليه هديّة، وكانت مصحفاً ملفوفاً في جلد، فأخذه الملك وقبّله ووضع على جبهته؛ تعظيماً له وتشريفاً، فقال له السيد شرف الدين عندئذٍ: أيّها الملك، لماذا تقبّل الجلد وتعظّمه وهو جلد ماعز؟ أجاب الملك: أنا قصدت القرآن الكريم الذي بداخله، ولم أقصد تعظيم الجلد! فقال السيد شرف الدين عند ذلك: أحسنت أيّها الملك، فكذلك نفعل نحن عندما نقبّل شبّاك الحجرة النبويّة، أو بابها، فنحن نعلم أنّه حديد لا يضرّ ولا ينفع، ولكنتنا نقصد ما وراء الحديد وما وراء الأخشاب، نحن نقصد بذلك تعظيم رسول الله ﷺ، كما قصدت أنت القرآن بتقبيلك جلد الماعز الذي يغلفه.

فكبر الحاضرون؛ إعجاباً به، وقالوا: صدقت، واضطرّ الملك وقتها للسماح

للعجاج أن يتبرّكوا بآثار الرسول ﷺ، حتّى جاء الذي بعده، فعاد إلى القرار الأول^(٨٧).

الهوامش

- (١) السيّد محمد الموسوي، زندگي نامه شهيد آيت الله صدر: ٤٢، منشورات بشير، قم.
- (٢) في عصرنا الحاضر هناك العديد من المؤسسات البحثية التي عنيت بهذا الموضوع وتناولته بالكشف والتحليل من جميع الجوانب. ومن ذلك ما صدر في العام ١٩٨٦م من دراسة جديدة لـ (مدرسة التاريخ)، عن جامعة تل أبيب في الأراضي الفلسطينية المحتلة، تحت عنوان: (المؤتمرات الإسلامية، من تأليف (مارتن غرامر)، الذي عنون في المقدمة: «رصد المساعي الأولى للمسلمين على أعتاب هذا القرن - العشرين - بغية مقارعة القوى الغربية وإحياء كلمة الإسلام عن طريق اتحاد المسلمين». (مجلة (حوزه)، العدد ٤: ٢٠).
- (٣) السيد كاظم الحائري، مباحث الأصول ١: ١٥١، مكتب الإعلام الإسلامي، قم.
- (٤) مجلة (الفكر الجديد)، العدد ٦: ٣٠٦ - ٣٠٧، دار الإسلام للدراسات والنشر، بيروت.
- (٥) المصدر السابق: ٣٠٧.
- (٦) مجلة (حوزه)، العدد ٦١: ١٣٠.
- (٧) الشهيد مطهري، (كتاب وحدت)، مقال (الغدير ووحدت إسلامي): ٣٨٤، منشورات الإرشاد الإسلامي.
- (٨) انظر: الشهيد الصدر، رسالتنا: ٥٥ - ٦١، مكتبة النجاح، طهران؛ مباحث الأصول ١: ١٥١؛ الشهيد الصدر، أهل البيت: تنوع أدوار ووحدة هدف (المجموعة الكاملة لمؤلفات السيّد الصدر) ١١: ٧٠، دار التعارف للمطبوعات، بيروت.
- (٩) مجلة (الفكر الجديد)، العدد ٦: ٣٠٨.
- (١٠) المصدر نفسه.
- (١١) أهل البيت: تنوع أدوار ووحدة هدف (المجموعة الكاملة لمؤلفات السيّد الصدر) ١١: ٣٤ - ٣٧.
- (١٢) رسالتنا: ٥٧.
- (١٣) المصدر السابق: ٥٦.
- (١٤) المصدر السابق: ٥٦ - ٥٧.
- (١٥) المصدر السابق: ٦٠.
- (١٦) مقال (الغدير ووحدت إسلامي): ٣٨٥.
- (١٧) رسالتنا: ٥٨.
- (١٨) نهج البلاغة، الرسالة ٦٢.

نصوص معاصرة - السنة السابعة - العدد الثامن والعشرون - خريف ٢٠١٢ م - ١٤٣٣ هـ

- (١٩) المصدر السابق، الخطبة ١٣٤، ١٤٦؛ أهل البيت: تنوع أدوار ووحدة هدف (المجموعة الكاملة لمؤلفات السيد الصدر) ١١: ٦٧ - ٦٨.
- (٢٠) مباحث الأصول ١: ١٥١.
- (٢١) أهل البيت: تنوع أدوار ووحدة هدف (المجموعة الكاملة لمؤلفات السيد الصدر) ١١: ٧٠.
- (٢٢) كتب شرف الدين في (أجوبة مسائل جار الله) في تفسير اقتداء الإمام بالخلفاء يقول: «وأما صلاة علي عليه السلام وراء أبي بكر وعمر فليست تقيّة؛ إذ حاشا الإمام أن يجعل عبادته تقيّة، ويجوز للشيعة أن يقتدي بالسني». (العلامة شرف الدين، بيست پاسخ به موسى جار الله: ١٧٦، ترجمة: سيد محمد مختار شاهي، منشورات جهان آرا).
- (٢٣) أهل البيت: تنوع أدوار ووحدة هدف (المجموعة الكاملة لمؤلفات السيد الصدر) ١١: ٦٥.
- (٢٤) وسائل الشيعة ٥: ٣٨١ - ٣٨٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- (٢٥) أصول الكافي ٢: ٤٠١، دار مصعب ودار التعارف، بيروت.
- (٢٦) شهيد صدر، نقش پيشوايان شيعه در بازسازي جامعه اسلامي: ١١، ترجمة: علي إسلامي، منشورات روز به، طهران.
- (٢٧) المصدر نفسه.
- (٢٨) أهل البيت: تنوع أدوار ووحدة هدف (المجموعة الكاملة لمؤلفات السيد الصدر) ١١: ٧٠.
- (٢٩) المصدر نفسه.
- (٣٠) كان العديد من العلماء قد أفتوا بالجهاد آنذاك، أمثال: السيد محمد كاظم اليزدي، والميرزا محمد تقي الشيرازي، وشيخ الشريعة الإصفهاني، والسيد مصطفى الكاشاني، و... داعين شيعة العراق إلى الالتحاق بإخوانهم السنة في الدفاع عن بلاد الإسلام.
- (٣١) مباحث الأصول ١: ١٥٢.
- (٣٢) المصدر نفسه.
- (٣٣) المصدر نفسه.
- (٣٤) الدكتور السيد محمد التيجاني، آن گاه كه هدايت شدم: ٨٢، ترجمة: سيد محمد جواد مهري، مؤسسة المعارف الإسلامية، قم.
- (٣٥) ملحق صحيفة (جمهوري إسلامي)، بتاريخ: ١٩/١/١٣٦١ هـ.ش، صفحة ١٠.
- (٣٦) وكان قد فصل القول هنا عن الحركة الإسلامية في العراق.
- (٣٧) (الفكر الجديد)، العدد ٦: ٣٠٦ - ٣٠٧.
- (٣٨) المصدر السابق: ٣٢٨ (الهامش).
- (٣٩) رسالتنا: ٢١ - ٢٢.
- (٤٠) المصدر نفسه.
- (٤١) المصدر السابق: ١٣٧ - ١٤٢.
- (٤٢) المصدر السابق: ١٤١.
- (٤٣) المصدر السابق: ١٤٢.

- (٤٤) رسالتنا: ٥٩.
- (٤٥) أصول الكافي ٢: ١٦٤.
- (٤٦) رسالتنا: ٥٩ - ٦٠.
- (٤٧) فلسفتنا، المقدمة.
- (٤٨) لم يكن الشهيد الصدر عضواً في جماعة العلماء، لكن معظم كتابات هذه الجماعة كانت من تدوينه (انظر: زندگي نامہ شهيد صدر: ٤٩).
- (٤٩) المصدر نفسه؛ مباحث الأصول: ٨٧.
- (٥٠) مباحث الأصول ١: ٨٨ - ٨٩.
- (٥١) أسبوعية (بعث)، العدد ٥٧٩، السنة الثانية عشرة.
- (٥٢) المصدر السابق، رسالة الشهيد الصدر إلى السيد هادي خسروشاهي.
- (٥٣) الشهيد الصدر، الإسلام يقود الحياة: ٢٣، دار التعارف، بيروت.
- (٥٤) مباحث الأصول: ١٥١ - ١٥٢.
- (٥٥) جاء في فتوى الشهيد الصدر: «يحرم على جميع أبناء الشعب الانتماء إلى حزب البعث، وإن الانتماء إليه يعدّ إغانةً للظالم، ومشاركةً في القضاء على المسلمين».
- (٥٦) من فتوى الشهيد الصدر: «يحرم على المسلمين حضور صلاة الجماعة خلف مَنْ لم يعيّنوا من قبل مراجع المسلمين».
- (٥٧) مصطفى قلي زاده، شهيد صدر بر بلندي آنديشه و جهاد: ٩٠، مؤسّسة التبليغ الإسلاميّ.
- (٥٨) المصدر السابق: ٩٥ - ٩٦.
- (٥٩) مباحث الأصول ١: ١٥٣.
- (٦٠) المصدر نفسه.
- (٦١) الأمدي، غرر الحكم ودرر الكلم ٤: ٦٦، جامعة طهران.
- (٦٢) أهل البيت: تنوّع أدوار ووحدة هدف (المجموعة الكاملة لمؤلفات السيّد الصدر) ١١: ١١.
- (٦٣) المصدر السابق: ٢٦، ٤٤.
- (٦٤) ملحق صحيفة (جمهوري إسلامي)، بتاريخ: ١٩/١/١٣٦١هـ.ش، صفحة ١٠.
- (٦٥) مباحث الأصول: ١٥١.
- (٦٦) المصدر السابق: ١٥١ - ١٥٣.
- (٦٧) آن گاه كه هدايت شدم: ٨٢ - ٨٣.
- (٦٨) المصدر نفسه.
- (٦٩) المصدر السابق: ٨٨ - ٩٤.
- (٧٠) إن من مفاخر مالك بن أنس قوله: «كُنْتُ أَدْخُلُ إِلَى الصَّادِقِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ السَّائِلِ، فَيَقْدِمُ لِي مَخْدَةً، وَيَعْرِفُ لِي قَدْرًا، وَيَقُولُ: يَا مَالِكُ إِنِّي أَحْبَبْتُكَ، فَكُنْتُ أَسْرُ بِذَلِكَ، وَأَحْمَدُ اللَّهَ تَعَالَى عَلَيْهِ».
- (مجلة حوزة، العدد ١٨: ٨٨).
- (٧١) أصول الكافي ٢: ٤٠١.

- (٧٢) الصدوق، الاعتقادات: ١٠٧.
- (٧٣) المصدر السابق: ١٠٨.
- (٧٤) الطوسي، الغيبة: ٣٨٦.
- (٧٥) رسالت ما: ١٣٠.
- (٧٦) المصدر السابق: ١٣١.
- (٧٧) ابن شعبة الحرّاني، تحف العقول: ٣٣، تصحيح: علي أكبر غفاري، منشورات الإسلامية، طهران. وانظر: رسالت ما: ١٣١.
- (٧٨) رسالت ما: ٥٢ - ٥٣.
- (٧٩) مجلة (سروش)، العدد ٤٥: ١٣٩.
- (٨٠) مباحث الأصول ١: ٥٥؛ مجلة (سروش)، العدد ٤٥: ١٣٩؛ شهيد صدر بر بلندي أنديشه و جهاد: ١٣٠.
- (٨١) المصدر نفسه.
- (٨٢) مباحث الأصول: ١٦١.
- (٨٣) المصدر نفسه؛ شهيد صدر بر بلندي أنديشه و جهاد: ١٣١ - ١٣٣.
- (٨٤) العلامة شرف الدين، المراجعات، تحقيق وتعليق: الشيخ حسين راضي، بيروت؛ شهيد صدر بر بلندي أنديشه و جهاد: ١٠٥ - ١٠٦.
- (٨٥) شهيد صدر، تشييع يا اسلام راستين: ٦٠ - ٨٤، ترجمة: علي أكبر مهدي پور، منشورات روز به، طهران.
- (٨٦) مباحث الأصول ١: ٥٤.
- (٨٧) آن گاه كه هدايت شدم: ٩٣ - ٩٤.

العقل الدامي

جولة في المدرسة الفكرية للشهيد الصدر

. القسم الثاني .

أ. محمد رضا الحكيمي (*)
ترجمة: حسن علي الهاشمي

١٣. الإسلام رائد الحياة —

إنَّ عظمة فكر الشهيد الصدر، وحرّيته الفكرية، وشجاعته في إظهار الرأي، تتجلّى بأروع صورها في كتابه «الإسلام يقود الحياة». عندما كنا نعدّ القسم الاقتصاديّ من كتاب «الحياة» (الجزء الثالث إلى السادس)، قلّت للإخوة المحترمين: لا تأتوا بأيّ كتاب أو مقالة في موضوع «الاقتصاد» حتّى «الاقتصاد الإسلاميّ» في محيط عملنا، فننشغل بقراءتها، فتكون هناك خشية من أن نخضع تحت تأثير ما ورد فيها - أو المدرسة التي تنتمي لها - عند بيان مسألة من المسائل العامة أو الخاصة، فنشدّ عن الفضاء الخالص للفهم القرآنيّ، والإدراك التفقّهيّ الحديثيّ، وتعلّق الصفاء السماويّ للكتاب والسنة. وهكذا كان، حتّى بلغنا «فصل الزكاة» (وهو الفصل الأربعون)، من الباب الثاني عشر، في الجزء السادس. وهنا توصلنا بأنفسنا بعد تمحيص «روايات الزكاة» إلى نتيجة مفادها أنّ أخبار وأحاديث الزكاة ترى وجوب تساوي جميع أفراد وأسر المجتمع الإسلاميّ في الاستهلاك، أي إنّ الإسلام وإنّ كان يؤمن إلى حدّ ما

(*) صاحب كتاب (الحياة)، أهمّ شخصيّة تفكيكيّة معاصرة، له كتب عدّة، منها: علم المسلمين، المدرسة التفكيكيّة، الاجتهاد والتقليد في الفلسفة،

بالتفاوت في الملكية، وحرية التصرف فيها؛ طبقاً للضوابط والقيود الشرعية، إلا أنه في ما يتعلق بالاستهلاك يذهب إلى وجوب أن يتساوى الجميع في التمتع بمستوى واحد معقول من العيش الكريم؛ (لأنهم جميعاً من البشر، وكل أسرة هي مثل الأسرة الأخرى، وليس لابن الأميرعدة أوسع من ابن الفقير، وكلاهما يتساوى بدرجة واحدة في الاحتياجات المادية والثقافية والدينية والدنيوية). وإذا حصل استثناء في بعض الموارد - طبقاً للدين ومنطق الحياة - وجب لحاظه في حدود هذه الدائرة الاستثنائية.

هذه هي النتيجة التي توصلنا إليها في الحقيقة؛ استناداً إلى الآيات والروايات، ولكننا أثّرنا عدم تدوين ما توصلنا إليه من ضرورة تساوي الجميع في الاستهلاك صراحةً، وخاصة أن الإخوة المحترمين كانوا يصرون على الابتعاد عن تدوين ما من شأنه أن يحمل صورة الفتوى.

تصرّمت هذه الأيام، وانتهى العمل من أربعة أجزاء من قسم الاقتصاد من كتاب «الحياة» (بعد حوالي سبع سنوات من العمل، باستثناء الأعمال السابقة في الأعوام المنصرمة في جميع الكتاب)، وأصبح جاهزاً ليأخذ طريقه إلى صفّ الحروف. وفي هذا الأثناء كنت متوجّهاً من قم المقدّسة إلى طهران؛ لأتابع عمل طبع هذه الأجزاء، فقلتُ للإخوة عندها: لا مانع الآن من أن تأتوا بكتاب أو مقالة جديرة بالقراءة في حقل الاقتصاد، لنتصفّحه ونقرأ فيه. فكان من جملة الكتب التي جاء بها الإخوة كتاب «الإسلام يقود الحياة». فوجدتُ أثناء قراءتي في هذا الكتاب أن السيد الشهيد الصدر؛ واستناداً إلى «روايات الزكاة»، يقول بصراحة: إن مستوى حياة جميع الناس في المجتمع الإسلامي يجب أن تكون متكافئة ومتساوية.

حقاً إن هذا الفهم الفقهي الرفيع، والتفقه الجعفري السامي، وهذا الشعور القرآني الساطع، وهذا الإدراك الجماهيري السليم، وهذا الوجدان الإنساني الحرّ، وهذه الشجاعة المشهودة في إظهار الرأي، يعتبر بالنسبة لنا - نحن الذين توصلنا إلى ذات النتيجة من خلال الروايات - جليلاً وساطعاً، وحاكياً عن الروح الإسلامية الراقية التي يتحلّى بها هذا الشهيد العظيم. من هنا فقد اغتتمنا رأي سماحته، وأدرجناه في كتاب «الحياة»، رغم أننا قلّمنا اعتمدنا فيه على الأقوال من خارج دائرتنا المصغرة. وهنا يجدر

بنا أن ننقل ما ذكرناه في كتاب «الحياة» عن السيد الشهيد الصدر في هذا الشأن؛ إحياءً لشهداء الإسلام، وتخليداً للإسلام الشهيد، وهو كالتالي: «بعد أن وصلنا؛ إثر مطالعتنا في التعاليم القرآنية والحديثية وملاحظاتنا، إلى أن الإسلام إنما يدعو الناس لتبني مبدأ المساواة، ولتركيز مستوى معيشي «متساوٍ» أو «متقارب» للكل، وحمل الناس على قبول هذا المبدأ والجري عليه، بعد ذلك كله وقفنا على كلام الفقيه المتفتح الذهن، والعالم المفكر، الشهيد السيد محمد باقر الصدر، فرأينا أن ننقله هنا؛ إيقافاً للقراء عليه. يقول الشهيد الصدر - أعلى الله درجته في الشهداء -: «إن نصوص الزكاة صرحت بأن الزكاة ليست لسد حاجة الفقير الضرورية فحسب، بل لإعطائه المال بالقدر الذي يلحقه بالناس في مستواه المعيشي، أي لابد من توفير مستوى من المعيشة للفقير يلحقه بالمستوى العام للمعيشة، الذي يتمتع به غير الفقراء في المجتمع. وهذا معنى أن توفير مستوى معيشي موحد أو متقارب لكل أفراد المجتمع هدف إسلامي، لابد للحاكم الشرعي من السعي في سبيل تحقيقه»^(١)»^(٢).

وبقينا إن أهمية هذا الرأي لا تقل عن أصل الاهتمام بموضوع الاقتصاد، وضرورة البحث فيه، ودراسة مختلف المذاهب الاقتصادية، وتأليف كتاب «اقتصادنا». هذا هو مقام العقل والنبوغ الفقهي الذي نشأ وترعرع في حوزة النجف الأشرف، أي الحوزة التي تسكن إلى جوار «صاحب نهج البلاغة»، وتأكل من خير «صاحب نهج البلاغة»، لكنها - في الغالب - مغيبة عن المحتوى والمضمون الاقتصادي والإنساني والمعيشي والسياسي والعدلي لـ «نهج البلاغة»، بل قد لا يشكل «نهج البلاغة» لها مسألة تشغل تفكيرها... حتى يصل الأمر إلى ضرورة أن يصدر التعبير الذي يسد الخافقين «الإمام علي صوت العدالة الإنسانية» من مداد أديب مسيحي شريف، ويملاً به خمسة مجلدات، ليعم صدها الصاخب مسامع العالمين، وليأتي بعد ذلك أديب مسيحي آخر ليكتب شيئاً قريباً من هذا المضمون؛ إذ يقول: «إنه لما يدعو إلى العجب أن يجتمع نهج البلاغة والظلم في مكان واحد!». إنها مفارقة تحمل البعيد والقريب في موضع واحد!

وإذا ظهر شخص مثل السيد الشهيد الصدر، ليؤلف كتاب «اقتصادنا»،

و«الإسلام يقود الحياة»، أو «المدرسة القرآنية»، أو مثل العلامة الجعفري (١٣٧٧هـ.ش) الذي يفني عمره في تأليف شرح تفصيلي على «نهج البلاغة» (في حوالي ثلاثين مجلداً). - كما هو الحال بالنسبة إلى سائر أعماله وأبعاده الفكرية -. يكون مجرد استثناء. وأما الآخوند الخراساني (١٣٢٩هـ)، والميرزا النائيني (١٣٥٥هـ)، والشيخ محمد حسين كاشف الغطاء (١٣٧٣هـ)، والعلامة الأميني (١٣٩٠هـ)، والشيخ آغا بزرگ الطهراني (١٣٨٩هـ)، والشيخ محمد جواد البلاغي (١٣٥٢هـ)، فيبدو وكأن النساء قد عجمت حتى الآن عن أن يلدن مثلهم!

١٤. الفهم التوحيدي للاقتصاد -

إن من المسائل الجذرية في تعاليم الإسلام السامية، والتي هي على أهمية قصوى في بناء الفرد والمجتمع، الارتباط التام والمنيع لـ «العدل» في الاعتقاد التوحيدي بـ «العدالة الاجتماعية» (الأعم من الاقتصادية والقضائية). يغفل الكثير الكثير من المسلمين العلماء والمتقنين والعاديين عن هذا الموضوع الهام، وهو أن العدل يُعد في مذهبنا الركن الثاني من أصول الدين؛ إذ نرى الله عادلاً؛ حتى أخذنا نعرف بالعدلية، والقول بالعدل الإلهي في الأمور التكوينية والتشريعية. وعليه يجب أن يشكل تطبيق العدالة الاجتماعية جزءاً من الأحكام الجذرية، ويدخل في نسيج إسلامنا، كما هو كذلك. وهذا ما ذكر به مؤلفو كتاب «الحياة» في العديد من مواضعه. كيف يكون الله عادلاً ويرضى بالظلم، بمعنى أن لا يكون تطبيق العدالة واجباً في دين الله؟ إن في الرضا بالظلم ظلم. وكيف لنا أن نتهم الله - الذي أثبتنا عدله بالبديهيات العقلية والنقلية - بالظلم؟ إذاً الشرع الإلهي هو من أكبر دعاة تطبيق العدالة. وإن تطبيق العدالة ليس مجرد فضيلة أخلاقية، بل هو واجب وتكليف شرعي.

وإنه لمن حسن حظنا أن نرى السيد الشهيد الصدر قد التفت في كتابه «الإسلام يقود الحياة» إلى هذا الموضوع الإسلامي الهام والجوهري، وجاء على ذكره صراحة؛ إذ قال: «وينبغي أن نشير هنا إلى أن العدل الذي قامت على أساسه مسؤوليات الجماعة في خلافتها العامة هو الوجه الاجتماعي للعدل الإلهي الذي نادى به الأنبياء، وأكدت

عليه رسالة السماء، كأصل ثانٍ من أصول الدين، يتلو التوحيد مباشرة. ولم يكن الاهتمام على هذا المستوى بالعدل الإلهي، وتمييزه كأصل مستقلّ للدين من بين سائر صفات الله تعالى - من علمٍ وقدرةٍ وسمعٍ وبصرٍ وغير ذلك -، إلا لما لهذا الأصل من مدلول اجتماعي، وارتباط عميق بمغزى الثورة التي يمارسها الأنبياء على صعيد الواقع.

فالتوحيد يعني - اجتماعياً - أنّ المالك هو الله، دون غيره من الآلهة المزيّفة. والعدل يعني أنّ هذا المالك الوحيد - بحكم عدله - لا يؤثر فرداً على فرد، ولا يمنح حقاً لفئةٍ على حساب فئة، بل يستخلف الجماعة الصالحة ككلّ، على ما وفّر من نعم وثروات^(٣).

١٥. العرفان الإسلامي —

إنّ «العرفان الإسلامي» جزءٌ من التراث الثقافى والحضارة الإسلامية الغنيّة. وهناك في موضوع هذا العرفان - وفي شعبتيه: (العرفان النظري)؛ و(العرفان العملي) - الكثير من الآثار والمؤلفات التي أغنت المكتبات البشريّة، بجميع اللغات الإسلامية - وخاصة العربيّة والفارسيّة -، لا يمكن الحصول على مثيل لها ولعمقها في تاريخ العرفان لدى أيّ شعبٍ من الشعوب. وقد قرأتُ الكثير من هذه الآثار - على المستوى الشخصي - مراراً وتكراراً. وقد كتبتُ لنفسى عدّة مجموعات مختارة من الآثار والأقوال والمباني لكبار العرفاء، ومنها: مختارات كتبها قبل ما يقرب من أربعين سنة من ديوان ابن الفارض المصري (٦٣٢هـ)، ولكنها ضاعت للأسف الشديد. ومن بين القصائد التي انتخبْتُها لابن الفارض الهمزيّة، التي تبدأ بالمطلع الذي يقول فيه:

أرج النسيم سرى من الزوراء سَحَرًا، فأحيا ميّت الأحياء

والجيمية التي يقول في مطلعها:

ما بين معترك الأحداق والمهج أنا القليلُ بلا إثمٍ ولا حرج

ومن ضمن مختاراتي العرفانية اخترت أيضاً «القصيدة الموصليّة» لمرتضى ابن الشهرزوري (بعد عام ٥٢٠هـ)، التي تشير إلى بعض رموز العرفان العمليّ، وهي تبدأ بهذا المطلع المدوّر:

لمعت نارهم وقد عسعس الليلُ ومَلّ الحادي، وحرّ الدليل^(٤)

كما سنحت لي فرصة تصحيح ديوان حافظ الشيرازي من أوّله إلى آخره، ولم أوفق إلى طبع النسخة المصحّحة.

والمقامات التي بدأت بكتابتها على أسلوب «مقامات الحريري»، وأسميتها «مقامات الحكيمي»^(٥)، قد اشتملت على بعض الإشارات الفلسفيّة والعرفانيّة. وللأسف الشديد فإنّ هذا المؤلّف لم يكتمل، ثمّ ضاعت النسخة في واحدة من انتقالاتي المتكرّرة من منزل إلى آخر.

إنّ الحقائق العميقة والمفعمة بالدقائق الموجودة في العرفان الإسلاميّ غنيّة عن التعريف. بيد أنّ الحقيقة الهامّة والتي لم تخفّ عن أنظار المحقّقين في «المعارف العالية» هي أنّ هذا العرفان قد تأثّر بعرفان الشعوب السابقة على الإسلام (من الهنديّة، والغنوصيّة)^(٦)، وعرفان ما بين النهرين، وما إلى ذلك)، وقد استعار مادّة وجذر القول بـ «وحدة الوجود» - وهو مفهوم بعيد كلّ البعد عن القرآن الكريم - من تلك المدارس، وإن عمدها فيما بعد إلى الحصول من التعاليم الإسلاميّة والآيات القرآنيّة على بعض المواد الغنيّة، ولكنّها على أيّ حال لا تنطبق انطباقاً كاملاً على المعرفة الإلهيّة القرآنيّة والتعاليم الإلهيّة لأهل البيت (عليه السلام). لا في البعد النظريّ، ولا في البعد العمليّ والسلوكيّ - كما صرّح بذلك العلامة الحلي (٧٢٦هـ) في كتاب «نهج الحقّ»، والكثير من العلماء الآخرين الموسوعيّين، من أمثال: العلامة الطباطبائيّ في «تفسير الميزان»^(٧). كما ذهب العلامة السيد أبو الحسن رفاعي قزويني إلى القول بأنّ وحدة الوجود الإطلاقيّة - التي تمثّل أصل العرفان - كفرٌ محض، وإنّ القول بـ «المعاد المثالي» - المطروح في الفلسفة العرفانيّة -، مخالفٌ ومباينٌ لآيات القرآن والسنة المعتمدة^(٨).

وبطبيعة الحال فإنّي إنّما ذكرت هذا العنوان (١٥)، والعنوان التالي (١٦)،

ليشكلاً مقدّمة للعنوان (١٧)، الذي سنتحدّث فيه عن سبب إحجام السيد الشهيد الصدر عن ذكر «العرفان الإسلامي» في مؤلّفاته، فلم يردّ على ذكره أبداً!^(٩) كما أنّها تشتمل على التذكير بهذه النقطة، وهي أنّ سعة الاطلاع على الفلسفة والعرفان، وحتى إعداد المختارات الفلسفية والعرفانية، لا ينافي الانتساب إلى مدرسة التفكيك العلمية و«المنهجية»؛ وذلك لأنّ المنهجية تقتضي التمييز بين «المعارف الالتقاطية والمشوبة»^(٩) و«المعارف السماوية الخالصة»، وعدم اختلاطهما ببعضهما، فلا ننتزّل بالوحي الإلهي إلى مستوى معطيات العقول المختلفة والبحوث الخلافية^(١٠)، ولا نخدش في ثراء واستغناء المعارف القرآنية؛ كي لا يتمكّن بعض المستشرقين، أو من كان على شاكلة برتراند راسل، من التفوّه بشأن المعارف الإسلامية بما لا يليق^(١١).

١٦. حجية الكشف —

نعلم جميعاً أنّ الطرق التي سلكها الإنسان للوصول إلى معرفة الحقائق والحصول على المعارف هي بشكل عامّ لا تخرج عن ثلاث:

الأوّل: طريق الوحي، والاتباع العقلي لرسالة السماء.

والثاني: طريق الفلسفة، حيث يحصل كلّ مفكّر على مقدار من معرفة الواقع في ضوء ما يُسغفه فهمه.

والثالث: طريق الرياضة العرفانية والفهم القائم على الارتياض الشخصي.

طريق الوحي - كما أشرنا - يقوم على الفهم العقلاني للوحي. وإنّ القرآن الكريم مفعم بعبارة «أَفَلَا تَعْقِلُونَ» ومثيلاتها. وقد روي عن الإمام علي عليه السلام أنه قال في وصف الأنبياء ومهامهم الرسالية: «وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ»^(١٢). وإنّ تأكيد الأئمة الأطهار عليهم السلام على توظيف العقل - في فهم الوحي - واعتباره «حجّة باطنية» لله عزّ وجلّ، كما أنّ الأنبياء عليهم السلام حجّة ظاهرة، أشهر من أن يذكر^(١٣). وإن حديث «جنود العقل والجهل» العظيم من أكثر المعارف التربوية لأهل البيت عليهم السلام مدعاة إلى الفخر والاعتزاز.

وطريق الفلسفة هو الطريق الذي اختطّه عدد من المفكرين منذ حوالي أربعين قرناً، وأبدعوا من خلاله عشرات المدارس والمذاهب الفلسفية، التي تختلف فيما بينها

اختلافاً جذرياً وجوهرياً. بل حتى في المدرسة الفلسفية الواحدة قلماً نجد اتفاقاً حول مسألة واحدة - كما أشار الخواجه نصير الدين الطوسي إلى ذلك في بداية «شرح الإشارات» -، وقد أشرنا إليه أكثر من مرة لأهميته. مضافاً إلى ذلك فقد صرح كبار الفلاسفة - من الشرق والغرب - بعدم كفاية العقل لوحده في فهم الحقائق والوصول إلى المعارف^(١٤).

وطريق العرفان هو من الأساس قائم على الكشف والارتياض. وبعبارة أخرى: إنّ «العرفان النظري» يقوم بذاته، ويتفرّع عن «العرفان العملي». وإنّ المادّة الرئيسة للعرفان العملي هي الارتياض والرياضة الروحية التي تفرز - بعد صحّة المقدمات والشرائط، وضرورة السلوك، والارتياض لسنوات - كشف بعض الحقائق للشخص المكاشف والمرتاح، على فرض صحّة الكشف.

وهنا يجب التنويه إلى أنّ حاصل كشف المرتاض المكاشف إنّما هو حجة على المكاشف نفسه، دون غيره. وإنّ الاستدلال بالمعطيات الكشفية والارتياضية ليس استدلالاً. وإنّ كلّ مسألة فلسفية يُستدلّ عليها بالكشف - سواء بالاستدلال الصريح المتضمّن للاستدلال بالكشف، أو يكون مآلها إلى الكشف - تخرج عن ماهيتها الفلسفية؛ لأنّ الاستدلال الفلسفي يجب أن يكون عقلياً حتّى يقبله الجميع. والكشف ليست له حجّة عامّة، كما هو واضح. يقول العلامة الطباطبائي: «إنّ فهم هؤلاء السادة (الذين يدّعون الكشف) أيّاً كان إنّما هو حجة عليهم، دون غيرهم، وإنّ الادعاء إذا لم يستند إلى دليل لا قيمة له»^(١٥). يتّضح من هذا الكلام أنّ الكشف ليس دليلاً، وإنّ ادّعاء الكشف لأمر مثل: «وحدة الوجود» ادّعاء فاقده للدليل. وإذا كان الكشف صحيحاً فإنّما يكون حجة على المكاشف نفسه فقط، وإذا أذعن له الآخرون كانوا مجرد مقلّدين له. ولا يجوز التقليد في المعارف والعقائد، كما هو معروف.

أورد بعض المعاصرين المغرّمين بالفلسفة عدّة انتقادات على «الحكمة المتعالية»، وقال في نقده الثاني: «إنّ صدر المتألّهين في الكثير من المواطن، لبل يجب القول: إنه في الأصول الرئيسة لفلسفته: الحكمة المتعالية، قد استند إلى مشاهداته الباطنية

ومكاشفاته القلبية، وإلى البراهين المنطقية. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: هل يمكن في النظام الفلسفي المنسجم الاستناد إلى هذين المصدرين في عرض بعضهما، وعلى نسق واحد؟^(١٦).

في هذا المقام قيل كلاماً ناعماً ومؤدّباً، وهو أمرٌ تجب رعايته في مقام الكبار، كما أنني راعيته على الدوام، بل ألّفت كتاب «المعاد الجسماني في الحكمة المتعالية» في الدفاع عن الفيلسوف الكبير صدر المتألهين. بيد أنه في ما يتعلق بالمسائل العلمية والفلسفية المرتبطة بمشاعر النُخب في المجتمع، وازدهار الثقافة، يجب أخذ التصريح بالحقائق بنظر الاعتبار، وخاصة في مقام النقد. ولم يكن نقد آراء الكبار يوماً ما يُنقص من عظمتهم. وعليه فإنّ الإجابة هي بالنفي، بمعنى أنه لا يمكن الاستناد في النظام الفلسفي المنسجم على المشاهدات الباطنية والمكاشفات الشخصية. وإنّ مثل هذا الاستناد سيُنقص - حتماً - من انسجام النظام الفكري الفلسفي، ويحوّل الفلسفة إلى عرفان؛ لكونها غير مبرهنة. وعلينا - وفاءً لحقّ أساتذتنا - أن نذكر بأنّ هذا النوع من الانتقادات وما هو أكثر وأقوى منه - وإن كان هذا النقد أصولياً وقوياً إلى حدّ كبير - قد سمعناه قبل ما يقرب من نصف قرن في الدروس الفلسفية التحقيقية والانتقادية والاجتهادية من أستاذنا العلامة، جامع فنون الظاهر والباطن، الحاج الشيخ مجتبی القزويني رحمته الله.

وهنا يوجد أمرٌ آخر أيضاً، وهو أنّ الكشف يفتقر إلى إثبات، مثل: البرهان. وقد تقدم أن ذكرنا كلام ابن سينا وشيخ الإشراق في هذا الشأن، تحت العنوان التاسع من هذه المقالة؛ وذلك لأنّ الكشف بعد صحّة الشرائط والاستقامة في آداب السلوك وما إلى ذلك قد تطرأ عليه أخطاء كبيرة، عبّر عنها محيي الدين بن عربي بـ «الخواطر الشيطانية»، وعبّر عنها علاء الدولة السمناني بـ «أغلاط المكاشفين». من هنا فقد عمدتُ إلى تقسيم السلوك إلى قسمين، هما: «السلوك الإلهي» و«السلوك الصناعي». والسلوك الإلهي هو الذي يكون من خلال اتّباع المعصوم عليه السلام اتّباعاً كاملاً، وليس مجرد إظهار المحبة والمودة، بل اتّباعه حتّى في جزئيات الأحكام المأثورة عن المعصوم، من قبيل: (الوضوء) مثلاً؛ لأنّ السالك الحقيقي - كما نقرأ في

الزيارة الجامعة المعتبرة: «مَنْ أَرَادَ اللَّهُ بِدَأْ بِكُمْ» - يجب أن يتعلَّم جميع الآداب من المعصوم عليه السلام. إنَّ السلوك الذي يُفترض به أن يوصل إلى النتائج الهامة دقيق للغاية، ولا يعلم بهذا الطريق غير المعصومين عليهم السلام. و«باب الله» هو المعصوم فقط. ولا يمكن الوصول إلى الغاية دون الطريق، ولا يمكن ولوج الدار من غير طرق الباب. من هنا كان السلوك الإلهي منحصراً باتباع المعصوم عليه السلام، دون أدنى التقاط، لا في العقائد ولا في العمل. وإنَّ هذا السلوك هو الذي يوصل الإنسان إلى «القرب الجبروتي»، بعد أن يعبر به من «القرب الملكوتي»، ثم ينال «القرب الولائي». ونحن نعلم أنَّ الولاية غير إظهار المحبة والمودة. فإنَّ لازم الولاية هو الاتباع، حتى في الأمور الجزئية. وإنَّ الذي لا يكون فقهه فقه المعصوم، ولا يأتي بجزئيات أعماله على طبق أحكام المعصوم (المتَّخذة من اللوح المحفوظ، وسرَّ الأسماء العلمية، والمصالح الخفية)، لا يكون واصلًا لخواص الأعمال. وإنَّ خواص الأعمال من أركان السلوك والارتقاء. مضافاً إلى ذلك كيف يمكن لشخص أن يصل إلى «القرب الإلهي» قبل أن يصل إلى «القرب الولائي»؟ (مَنْ أَرَادَ اللَّهُ بِدَأْ بِكُمْ). وكيف يمكن لشخص أن ينال «القرب الإلهي» دون أن تكون أعماله وطاعاته مقبولة؟! (بمواالاتكم تُقبل الطاعة المُفترضة) ^(١٧). وهل يعتبر غير المتَّبِع لفقهمهم، ولم يجعلهم واسطة بينه وبين الله - في تلقي الأحكام الإلهية - ملازماً لهم، أم أنه يُعتبر مقصراً في حقهم؟ (اللازم لكم لاحقاً، والمقصر في حقكم زاهقاً). وربما لأجل هذه الملاحظات قال العلامة الطباطبائي في معرض حديثه عن «الشيخ الأكبر»: «كيف يمكن اعتبار محيي الدين من أهل الطريقة؟...» ^(١٨). وهل يُمكن لشخص أن يعتبر كلام عَلم مثل: العلامة الطباطبائي - في مثل هذه الموارد الجوهرية - كلاماً بسيطاً، ولا يلتفت إليه ويتدبَّر فيه؟ ومع ذلك يسمَّى مَنْ ينكر ذلك خبيراً ومختصاً في الفلسفة والعرفان؟!

وأما «السلوك الصناعي» فهو الناشئ عن التعميمات اليونانية والهندية وتوصّف ما بين النهرين - منذ ما قبل الإسلام -، وامتزج ببعض الآداب والعبادات الإسلامية. وقد سلك هذا الطريق أفراد من جميع المذاهب الإسلامية، ولم يكونوا مقيدين بقبول الولاية الكاملة (التكوينية والتشريعية) للمعصوم عليه السلام. وحتى من بين الشيعة كان

هناك أشخاص دخلوا في هذا النوع من السلوك - أي السلوك الصناعي -، ولا زالوا، وخاصة عند المتصوفة من الشيعة. وهذا السلوك بدوره إذا طبق بشكل صحيح، واستوفى كامل شرائط الارتياض، سيعمل على تحرير بعض الطاقات النفسية الكامنة، وبالتالي فإن السير في هذا الطريق لسنوات متواصلة، سيؤدي بالإنسان إلى مراحل من عالم الملكوت لا أكثر. وإن ما قاله أصحاب هذا السلوك، والأمور الممتعة التي كتبوها نظماً ونثراً، والخوارق والكرامات التي صدرت وتصدر عن بعضهم، هي في الأعم الأغلب مرتبطة بهذا السلوك الميسور لأهل السنة والشيعة على السواء، ولكنه لا يرقى إلى سلوك الأساطين، الذين كانوا - بحكم العقل والنقل - محض تابعين للمعصوم، من أمثال: الميرزا الإصفهاني، أو السيد موسى الزرآبادي، أو الشيخ مجتبی القزويني، أو السيد محمد تقي الإشكوري، أو الشيخ علي أكبر إلهيان التكايني. فإن الفرق بين ما يتوصل إليه أولئك السالكون وبين ما يحصل عليه هؤلاء السالكون كالفرق بين من يتبع المعصوم والذي لا يتبع المعصوم، أي مثل «الفرق بين الثرى والثريا».

إذاً فالمسائل العرفانية مسائل تقوم على الكشف، والكشف يقوم على السلوك، وللسلوك أقسام، يمكن لبعضها أن يمتزج بالأوهام الشيطانية، والتمييز بين هذه المراحل والأقسام ليس من اختصاص كل من هب ودب. وإن اجتراح بعض العجائب والغرائب، كما شوهد من بعض المرتاضين الهنود، لا يقوم دليلاً على شيء. فالنفس الإنسانية إذا ارتاضت اجتاحت أموراً تبدو على أهميّة كبيرة في أنظار العامة، ولكنها لا تفقد الخبير توازنه.

كنت في صدد أن أكتب مقالة أو رسالة في هذين النوعين من السلوك: «الإلهي»؛ و«الصناعي»، ولكنني أحجمت عن ذلك؛ إذ أدركت أنني إذا أردت أن أفي الموضوع حقّه في بيان الفرق بين هذين السلوكين، وهاتين المجموعتين من السالكين، أيّاً كان موقعهم، وزيّهم، حتّى في الحوزات العلميّة، تعيّن عليّ التصريح ببعض المفاهيم، وذكر بعض الأمثلة، التي لا يصلح نشرها على الملأ، بل لربما كان ضررها - على بعض الأشخاص - أكثر من نفعها؛ إذ سيجنح إلى الإفراط أو التفريط؛ فيكون

مذبذباً، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

كانت هذه الأمور مقدّمة لاستبيان السبب الذي جعل مفكراً مثل: السيّد الشهيد الصدر يُحجم في مؤلفاته عن ذكر العرفان والعرفانيّات بالمرّة.

١٧. العرفان في مؤلّفات السيّد الشهيد الصدر —

قال المختصّون بتراث السيّد الشهيد الصدر: «لم يعتنِ السيّد الشهيد بالمنهج العرفانيّ للمعرفة على الإطلاق، ولم يُشير إليه في كتاباته، وهذا أمرٌ مُلفت للنظر، ولا ندري لم لم يتناوله السيّد في كتاباته حول نظريّة المعرفة»^(١٩).

إنّ سبب عدم اهتمام فيلسوف ومفكّر مستقلّ مثل: السيّد الشهيد الصدر، وتجاهله للعرفان والعرفانيّات بشكل عامّ؛ بالالتفات إلى ما تقدّم أن ذكرناه في العنوانين السابقين، ليس خافياً؛ ذلك أنّ السيّد الشهيد الصدر لم يكن مقلداً في المعارف، فلم يكن مقلداً للمنطق والفلسفة، ولم يكن مقلداً للعرفان، خلافاً للكثير - حتّى من كبار الماضين -، من الذين كانوا في هذه المقولات مقلّدين ومجرّد مقرّرين من الناحية العلميّة. وقد استفاد في كتاب «فلسفتنا» من الفلسفة الحديثة إلى حدّ كبير، وكان رأيه يقوم على «المواجهة العميقة والشاملة للمذهب الماركسيّ الإلحاديّ، الذي كان في حينها قد ضرب بجرانه الثقيلة على كاهل الأقطار الإسلاميّة». أجل، لقد كان السيّد الشهيد مؤمناً بالمنهج العقليّ إلى حدّ كبير، وذلك على نحو مستقلّ.

كان الكثير من المفكرين والعلماء في العالم الإسلاميّ لا يوافقون العرفان والتوحيد العرفانيّ القائم على وحدة الوجود، ولم يؤمنوا باعتبار الكشف دليلاً عاماً، ويرونه خاصّاً بصاحب الكشف، كما أوضحنا ذلك سلفاً. من هنا فإنّ العلماء الكبار، من أمثال: الفارابي، وابن سينا، والخواجه نصير الدين الطوسي، والميرداماد، كانوا يقولون بالتوحيد العلّيّ والصدور، دون التجليّ والتطوّر. وحتى شيخ الإشراق السهروردي وأتباعه كانوا كذلك أيضاً؛ لأنّ المعرفة الإشراقية هي غير المعرفة العرفانيّة. وإنّ توجيه تهمة الاعتقاد بـ «وحدة الوجود» إلى شيخ الإشراق لا

تناسبه؛ لأنه يقول بأصالة الماهية، كما يقول الشهيد مطهري: «عندما يصرح شيخ الإشراق نفسه بأن هذا النوع من التمايز في الماهية جائز، ولذلك يقول: على الرغم مما قاله المشاؤون فإنني أقول بالتشكيك في الماهية، لا يسعنا أن نؤول كلامه، ونقول: إذاً كل ما يقوله الفلاسفة القائلون بأصالة الوجود»^(٢٠)، وقاله العرفاء أحياناً في باب حقيقة الوجود، يتطابق مع كلام شيخ الإشراق! كلا، إن هذا لا يصح»^(٢١).

١٨. نظرية المعرفة —

نعلم أن البحث عن «المعرفة» بشكل مستقل هو من بحوث العلم والفلسفة، ويعود بجذوره إلى سابقة عريقة عند الإغريق، تنتمي إلى عصر السفسطائيين. كما يعود إلى أقدم مراحل ظهور الفلسفة في الإسلام، أي إنها تعود إلى عهد يعقوب الكندي (حوالي ٢٦٠هـ)، حيث عدّد طرقاً للمعرفة^(٢٢).

وأما في الغرب فإن هذا البحث يعود إلى ما يقرب من ثلاثة قرون، حيث بدأه جان لوك (١٧٠٤م) الفيلسوف الإنجليزي المعروف. وقد بين نظريته في كتابه الذي يحمل عنوان «تحقيق بشأن قوة الإدراك عند الإنسان»، حيث أنكر هناك الفطريات والمفاهيم اللدنية، وذهب إلى القول بأن «أصل المعرفة الإنسانية يقوم على الحسّ والتعقل، ومراده من التعقل مشاهدة الحالات الباطنية»^(٢٣).

وبطبيعة الحال ترد على فلسفته بشأن «المعرفة» الكثير من الإشكالات. فعندما نقول: «إن أصل المعرفة الإنسانية يقوم على الحسّ والتعقل» نكون قد قسمنا المعرفة نفسها إلى قسمين، وهما: المعرفة الحسية؛ والمعرفة العقلية. وعليه لا تكون المعرفة الإنسانية منحصرة بـ «المعرفة الحسية»^(٢٤). مضافاً إلى أن عطف الحسّ والتعقل على بعضهما - وهما مقولتان ممتازتان عن بعضهما - لا يحل شيئاً. وإن تعريف التعقل بمشاهدة الحالات الباطنية غير صحيح؛ إذ في الكثير من الأحيان يبادر الإنسان إلى التعقل في موضوع، مع أن ذلك الموضوع لا يكون من حالاته الباطنية. وإن تعريف التعقل من وجهة نظره هو نفس تعريف الحسّ، غاية ما هنالك أن الحسّ الباطني في قبال الحسّ الظاهري.

نصوص معاصرة - السنة السابعة - العدد الثامن والعشرون - خريف ٢٠١٢ م - ١٤٣٣ هـ

وبعبارة أخرى: إذا كان مراد جان لوك من مشاهدة الحالات الباطنية هو الإحساس والشعور بتلك الحالات كان ذلك هو الحسّ، وليس شيئاً زائداً عليه؛ وأما إذا كان مراده المحسوسات الخارجية فإنّها ليست من حالات الإنسان الباطنية. وكذلك مشاهدة الحالات الباطنية إذا كان المراد منها المشاهدة البحتة والخالصة كانت واحدة من شُعب التعقّل، ولم تكن من الحسّ في شيء؛ وإذا كان المراد هو المحسوسات المستبطنة، مع حفاظها على الخصائص الحسيّة، لم تكن باطنية بحتة. أمّا السيد الشهيد الصدر فقد بحث مسألة «المعرفة» في كتابه «الأسس المنطقية للاستقراء» وبعض كتبه الأخرى بدقّة فلسفيّة وعلميّة. وقد أشرنا إلى ذلك. وقد طرح مسائل جديدة في تحقيقاته حول «المعرفة الاستقرائية»، واستعرض نظريّاته الخاصّة بقوة في مواجهة المنظرين الغربيّين. وفي هذه البحوث تبرز نظريّاته الاجتهادية في أبعاد المعرفة والمنطق والفلسفة القديمة والحديثة بوضوح^(٢٥).

١٩. الاتجاهات التفكيكية —

في هذا المقام وجدتُ من المناسب، بل من الواجب، أن أشير إلى الأبعاد التفكيكية في أفكار ومؤلفات الشهيد الصدر؛ بغية الإسهام في تجذير الاجتهاد في الفلسفة، وكسر حاجز التقليد في التفكير، والاستقلال الفكريّ، والنزعة العلميّة والمنهجية، وحذف «التعبّد في التعقّل».

وعليّنا أن نضيف هذه الملاحظة أيضاً، وهي أننا عندما نتحدّث ونقول: إنّ هذا الفيلسوف أو المفكّر أو المنظر من القائلين بالتفكيك، أو إنّ له اتجاهاً تفكيكياً، لا نعني بذلك أنّه من أصحاب المدرسة التفكيكية في خراسان ضرورةً، وإنّما المراد هو المفهوم الأعمّ من «التفكيك الاصطلاحي» لـ (أصحاب خراسان)، أو «التفكيك المناطقي» (من كلّ مكان ومنطقة أو من الحوزة أو الجامعة). وإنّما يكفي أن يعتدّ الفيلسوف ويلتزم بهذا الاعتقاد (وهذا النوع من المعرفة)، ويرى أنّ الفلسفة فنّ علميّ، وأنّ هناك بين معارف الوحي والمعارف الفلسفيّة والعرفانيّة - بشكل عامّ أو في بعض الموارد الهامّة - تفاوتاً واختلافاً في المستوى، وأحياناً يكون هناك اختلاف في الرؤية،

وفي بعض الموارد (بما في ذلك: المعاد المثالي، وكون الإرادة من صفة الفعل، وحدوث العالم، وروحانية حدوث النفس)، والمعطيات الفلسفية والعرفانية، لا تتطابق في الأصل والأساس مع الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وتعاليم المعصومين عليه السلام، يكون هذا النوع من الفلاسفة والمفكرين - الذين هم كثر خارج المدرسة التفكيكية الخراسانية (في الحوزة العلمية والجامعة) - تفكيكياً بتتقيح المناط، وإن لم يكن تفكيكياً بالمعنى المصطلح في حوزة خراسان، أو أن يكون عالماً بمباني التفكيك في خراسان، بل هو تفكيك بتتقيح المناط ونفس الأمر.

من هنا عندما نرى العلامة الطباطبائي يقول بصريح العبارة: من المحال - كالاستحالة الرياضية في تغير درجة زوايا المثلث - أن تتطابق طرق المعرفة الثلاثة (الوحي؛ والفلسفة؛ والعرفان)، سنعتبره تفكيكياً بتتقيح المناط؛ لأن «مدرسة التفكيك» لا تريد أكثر من هذا. بل إنها تقول ما هو أخف من ذلك؛ لأن المدرسة التفكيكية لا تقول: إن النسبة بين معطيات الوحي من جهة والمعطيات الفلسفية والعرفانية من جهة أخرى هي نسبة «التباين الكلي» أبداً، في حين أن صريح كلام العلامة الطباطبائي في «الميزان»، الذي هو من أهم إنجازاته العلمية، يقول بـ «التباين الكلي»^(٢٦). بينما كل ما تقوله المدرسة التفكيكية هو أن النسبة بين هاتين الفئتين من المعطيات ليست «التساوي الكلي»^(٢٧). وإن الكثير من الفلاسفة والمطالعين على الفلسفة من غير المدرسة الخراسانية، من الذين يعرفون الفلسفة، ويعرفون «القرآن الكريم» والمباني السماوية إلى حد ما، يذهبون إلى هذا الرأي أيضاً^(٢٨).

وحيث إن غايتنا الرئيسة منذ عشرة أعوام؛ إذ بدأنا بالترويج لـ «المدرسة التفكيكية»، تقوم على تقريب أذهان المفكرين في خراسان وغيرها، والتوفيق بينهم، وتوضيح هذه النقطة، وهي أن هذين التيارين الفكريين الإسلاميين لو تدبرا في كلام بعضهما، ولم يتسلل السطحيون من الذين يستهويهم النقد من خارج دائرتهم، لأدركوا أن النقاط الخلافية بينهم ليست كبيرة. وإذا كانت نيتنا هي تقديم خدمة في هذا الاتجاه وجدنا أنفسنا وجهاً لوجه أمام إعادة طبعاات متعددة ومتنوعة للكتب والمؤلفات التفكيكية، والكثير من رسائل الشكر والتشجيع. والأهم من

ذلك أننا تعرّفنا إلى الكثير من الفضلاء العقلاء الناشطين الذين توصّلوا إلى ضرورة التجديد والتحقيق في المعارف الدينيّة، بما فيها المعارف الحديّثيّة؛ ليحصلوا بذلك على فوائد غير مسبوقّة. ونسأل الله أن يسدّد خطواتهم في هذا المجال.

ولهذه الغاية المذكورة، أي التقريب بين الأذهان، بدأنا كلّما عثرنا على مفكّر يميل في مؤلّفاته إلى الاتجاه التفكيكيّ نعمل على نشره. من هنا فقد أردنا في هذه المقالة الخاصّة بالسيد الشهيد الصدر - والتي أطنبنا فيها إلى حدّ ما، ومع ذلك لم نضرب جميع مؤلّفاته، فإنّ التدقيق فيها بأجمعها يحتاج إلى كتاب مستقلّ - أن نشير إلى اتجاهاته وآرائه التفكيكيّة على النحو التالي:

١. إنّ عدم اهتمام السيد الشهيد الصدر بـ «العرفان الإسلاميّ»، وعدم تعرّضه المطلق للمفاهيم العرفانيّة، حتّى في بحث المعرفة، يحكي عن أنّه لم يكن يؤمن بالمعطيات العرفانيّة، وتوحيد وحدة الوجود، وأمثال ذلك أبداً. وكان يرى أنّ التوحيد الصحيح هو التوحيد القرآنيّ (الإيجادي)، وليس التوحيد الوجوديّ (العرفانيّ).

٢. كما يمكننا أن نحسّ بوضوح أنّ السيد الشهيد الصدر بدّقته العقليّة، حتّى في مثل بحث الاستقراء في المنطق، كان يمنع نفسه من الاستناد إلى «الكشف العرفانيّ»، الذي هو مجرد حجة شخصيّة، وإذا اتّبعت شخصاً أمراً قائماً على كشف غيره كان مقلداً مدّعياً للكشف. وهذا التوجّه ينفي عنه الاعتقاد بالعرفان.

٣. إنّ تأليف كتاب «المدرسة القرآنيّة»^(٢٩)، وتأكيد على العودة إلى القرآن الكريم (والفهم القرآنيّ) في أوساط الحوزة العلميّة، من الأدلّة الأخرى على انتمائه الخالص للقرآن. وإلاّ فإنّ فهم القرآن المشوب بالفلسفة والعرفان كان موجوداً ولا يزال عند البعض من المنتسبين إلى الحوزة العلميّة على الدوام.

٤. قال السيد الشهيد الصدر في كتاب «دستور الأخلاق»، بعد البحث في سلسلة من مسائل الأخلاق المقارنة بين الشرق والغرب، والقول بأنّه يسعى إلى عدم إصدار أيّ أحكام مسبقة، وإنّما ينطلق في ذلك بما يمليه العقل: «الذي استولى في النهاية على إعجابنا هو ما رأيناه من التباين المذهل بين الطريقة التي يقدّم بها القرآن إجاباته عن هذه الأسئلة»^(٣٠) وطريقة غيره. ففي حين أنّ هذه الحقائق الأساسيّة قد برزت

إلى الوجود في ضوء القرآن اللامع منذ أربعة عشر قرناً نجد أنّ مجتهدِي المفكرين - ممن يبحثون عن هذه الحقائق خارج ضوء القرآن - يصدرون دائماً عن تردّد وارتياب، ولا يصلون إلى أبعاد منها إلّا بعد جهد جهيد، دون أن يتوقّفوا الوقوع في أخطاء فادحة»^(٣١).

٥. إنّ الأمر الآخر الذي هو على درجة عالية من الأهميّة، والذي يجعل السيد الشهيد الصدر ضمن المتألّهين القرآنيين، غير المتأثرين بالمدارس والمذاهب الدخيلة، هو رفضه لمبدأ العلّية، الذي يؤدّي إلى القول باضطرار المبدأ الفاعل المتعالّي، وكونه مجبراً. لقد عمد السيد الشهيد من خلال ما قاله إلى نفس النظام الفكريّ لدى المشائين؛ إذ أنكر علّية العلم الأزليّ. وبهذا البيان يتمّ رفض الفلسفة العرفانيّة أيضاً؛ إذ يرد إشكال الجبر في المبدأ المتعالّي على التجلّي أيضاً؛ لأنّ التجلّي الذاتيّ هو ذات التجلّي. مضافاً إلى ذلك فإنّ التجلّي ينفي الخلق من العدم، وإنّ الخلق من العدم هو عين توحيد القرآن الكريم والمعصومين عليهم السلام (التوحيد الإيجادي).

كما أنّ السيد الشهيد الصدر يخالف مسلك المشائين بشكلٍ كامل، وينكر القول بأنّ العلّية هي منشأ حدوث العالم^(٣٢).

٦. رغم أنّ السيد الشهيد الصدر في محاولة إقناع المادّيين لم يكن بوسعه الاستدلال بـ «الوحي» صراحةً، ولكنّه مع ذلك أعطى «القرآن الكريم» مساحة محوريّة واسعة، وذكر الكثير من أدلّة القرآن الحسيّة والعقليّة على إثبات الصانع.

٧. إنّ من جملة الأمور الهامّة التي استند إليها الشهيد الصدر فهم «القرآن الكريم» بشكلٍ عميق وكامل (استكناه ذخائر القرآن). ومن الواضح أنّ هذا «الفهم العميق» يعود في المرتبة الأولى إلى «الفهم الخالص»، بل هو متوقّف على هذا النوع من الفهم. وإلّا فإنّ الفهم المخلوط والمستورد لا ينسجم مع التعمّق في الفهم كثيراً. وهذا الأمر (نفي استيراد الأفكار من الخارج للتعمّق في الفهم القرآنيّ) يؤيّد بالتعبير الجميل والعميق الذي استعمله السيد الشهيد، والذي تقدّم ذكره، أي (استكناه ذخائر القرآن) مئة بالمئة.

٨. من خلال التتبّع في أفكار السيد الشهيد الصدر ندرك أنّه كان يسعى إلى

تأسيس فلسفة جديدة تختلف اختلافاً كبيراً عن الفلسفة الإسلامية التقليدية المهيمنة على الحوزات العلمية والجامعات حالياً^(٣٣). وإن هذه الفلسفة؛ بالالتفات إلى التوجه العميق والتفصيلي للسيد الشهيد إلى «القرآن الكريم»، كانت دون أدنى شك إما فلسفة قرآنية وقائمة على معارف أهل البيت عليهم السلام بالمطلق، أو أنها لا تحتوي على أدنى مخالفة لظواهر الآيات والروايات، وعدم اللجوء إلى الاستيراد والتأويل، وإلا فإنه إذا أبدع فلسفة إسلامية تأويلية ومستوردة لن يكون مؤسساً لمنظومة فلسفية جديدة.

٢٠. العقل الدامي —

نصل إلى تسمية هذا المقال: «العقل الدامي»^(٣٤). الحقيقة أنني لا أرى نفسي عاجزاً في ما يتعلق باختيار العناوين. وهذا واضح من خلال تسمية بعض مؤلفاتي وكتبي. وكثيراً ما ترد عليّ بعض الأفاضل لكي أنتقي لهم تسمية لكتاب أو مجلة أو صحيفة أو مكتبة أو مراكز علمية أو ثقافية، أو يستشيرونني في تسمية انتخابها بأنفسهم، كي أبدي رأيي فيها.

ومع ذلك خطر على ذهني تسمية هذه المقالة بـ «العقل الدامي»، مستعيراً إياه من شيخ الإشراق شهاب الدين السهروردي (٥٨٧هـ). فلم أرَ في ذلك بأساً، وخاصة أنه يستدعي إحياء ذكر الشيخ السهروردي. وإن شيخ الإشراق نفسه - رغم اختلافه الكبير مع المشائين والفلسفة المشائية - نقل الكثير من التعبيرات عن الشيخ ابن سينا، مصرحاً بهذا النقل.

أعتقد لو أن الشيخ شهاب الدين السهروردي قد التقى بالسيد الشهيد الصدر لكان قد شمله بآيات التكريم والاحترام والتبجيل، على نحو ما كان تبجيله واحترامه لأستاذه الشيخ مجد الدين الجيلي، وكذلك الفخر الرازي، أو أكثر^(٣٥).

لقد صنّف شيخ الإشراق السهروردي العديد من الكتب والرسائل باللغتين العربية والفارسية، وهي مشهورة عند أصحاب العلم والفضيلة. ومن بين أعماله باللغة الفارسية عدد من الرسائل تحت عنوان: «برتو نامه»^(٣٦)، و«لغت موران»^(٣٧)، و«صفيّر سيمرغ»^(٣٨)، و«آواز بر جبريل»^(٣٩)، و«عقل سرخ»^(٤٠).

نصوص معاصرة - السنة السابعة - العدد الثامن والعشرون - خريف ٢٠١٢ م - ١٤٣٣ هـ

لقد عمد شيخ الإشراف السهروردي في رسالة «العقل الدامي» - كما هو حاله بالنسبة إلى أغلب قصصه الفلسفية والعرفانية - إلى رسم موقف وسيرة يمكن للإنسان من خلاله الخلاص من الأفخاخ المنصوبة في طريقه، وأن يفوق من سباته، ويلتمس طريقه إلى الغاية والهدف، لينتهي بالتالي ويصل إلى حقيقة «سراج الليلة الظلماء» و«شجرة طوبى». ويعلم أن هناك على الدوام عنقاء ترعى بين أحشائها وجوداً يقطر بالعلم والحكمة (إذا تم التعرف عليه جيداً).

وكذلك عليه أن يتعرف على الحصار الجسدي المحيط بروحه، ويسعى إلى تخليص نفسه منه. وأن يعلم أيضاً أن «سكرات الموت» ستضع حداً لكل هذه القيود، وتحطم جميع السدود. بيد أن ذلك سيكون عسيراً على بعض، ويسيراً على آخرين. وعلى الإنسان مسبقاً أن يرمي بنفسه في ظلمات البلاء، كي يصل إلى ينبوع الحياة والعلم والمعرفة (من خلال العمل والسلوك والرياضة): كي يتخلص من صدمات الموت (وصعوبات نزع الروح من الجسد).

وإن الشهيد الصدر بعد مقامه العلمي الشامخ، وشرف انتسابه إلى أهل بيت الوحي والنبوة والرسالة، وما قدمه من الخدمات الجليلة للإسلام والإنسانية، قد وصل إلى ينبوع الحياة المتمثل بالشهادة، بعد أن تجاوز الحياة المملوكة والملكوتية، وبلغ الحياة الجبروتية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٩).

الهوامش

(١) السيد محمد باقر الصدر، الإسلام يقود الحياة: ٤٥، ط٢، طهران، ١٤٠٣هـ.

(٢) الحياة ٥: ١٦٥، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، ط١، طهران.

وهل نعثر اليوم على مثل هذا الحاكم الشرعي، أو أن نجد مسؤولاً في الدولة، يفكر في هذا الأمر، بمعنى أن يعتزل الرأسماليين، ويخرج من قلبه حبّ الأموال والثروات والقصور، ويجهد من أجل تحقيق أصل (المساواة) الإسلامي، وبناء المجتمع القرآني بعيداً عن الاختلاف والتفاوت الطبقي، وأن يجعل من العمل على إنقاذ (المستضعفين) فلسفة لحياته.

- (٣) السيد محمد باقر الصدر، الإسلام يقود الحياة: ٣٣ - ٣٤، ط٢، طهران، ١٤٠٣هـ.
- (٤) النجوم الزاهرة ٥: ٢٣١؛ شذرات الذهب ٤: ١٢٤؛ الوافي بالوفيات ١٧: ٣٠٤ - ٤٠٤.
- (٥) كان بطل المقامات التي ألفتها (الشيخ نجم الدين المغربي)، و(أبو سعد الفزاري)، بدلاً من (أبي الفتح الإسكندري) و(عيسى بن هشام) في (مقامات بديع الزمان الهمداني)، و(أبي زيد السروجي) و(الحارث بن همّام) في (مقامات الحريري).
- (٦) الغنوسية أو الغنوصية: مذهب العرفان: مذهب عقلاني نشأ في نطاق المسيحية خلال القرن الأول للميلاد، وازدهر بخاصة خلال القرن الثاني للميلاد، أكد أصحابه على المعرفة الروحية أكثر مما أكدوا على الإيمان، والقول بأن المادة شرٌّ، وأن الخلاص يأتي من طريق المعرفة الروحية. وقد حاول القائلون بهذا المذهب التوفيق بين تعاليم المسيح والفلسفات الإغريقية والشرقية، وأنكروا التفسير الحرفي للكتاب المقدس. ومن أجل ذلك اعتبرتهم الكنيسة من الهرطقة. والتعبير مشتق من اللفظة اليونانية (gnosis)، ومعناها المعرفة. (انظر: منير البعلبكي، المورد (قاموس إنجليزي - عربي): ٣٩٢، ٢٠٠٥م؛ موسوعة المورد ٤: ٢٢٥).
- (٧) العلامة محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن ٥: ٣٠٥ - ٣٠٦، طبعة آخوندي، ط٢، طهران، ١٣٩٠هـ؛ وطبعة بيروت: ٢٨٢ - ٢٨٣، ١٣٩٠هـ.
- (٨) غوصي در بحر معرفت: ١٢٨، ١٦٦، إعداد: أحمد سيّاح، انتشارات إسلام، طهران.
- (٩) قال صدر المتألهين عليه السلام في مقدمته على (الأسفار الأربعة): «...وأصنّف كتاباً جامعاً لشتات ما وجدته في كتب الأقدمين، مشتملاً على خلاصة أقوال المشائين، ونقاوة أذواق أهل الإشراف من الحكماء الرواقيين، مع زوائد لم توجد في كتب أهل الفن...».
- (١٠) في ما يتعلق باختلاف الفلاسفة وتضارب الآراء الفلسفية فحيث كان المنشأ الأساس للفلسفة هو العقل، والوهم يتدخل في شأن العقل على الدوام، فإن فهم الحقائق بمجرد العقل يقتصر على الدوام بالاختلاف الفاحش. (راجع الكلام الهام للغاية الذي قاله الخواجه نصير الدين الطوسي في بداية (شرح الإشارات)، وقد تقدم أن ذكرناه في نهاية العنوان (١١) من هذه المقالة).
- (١١) تاريخ فلسفة الغرب ٢: ٢٢٣ - ٢٢٤، طهران، ١٣٥١هـ.ش.
- (١٢) نهج البلاغة، الخطبة ١.
- (١٣) تحف العقول، حديث هشام بن الحكم عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام.
- (١٤) انظر: مقالة (حد گرای در علم وفلسفه)، في كتاب (اجتهاد وتقليد در فلسفه).
- (١٥) مجموعة مقالات ٢: ٢١٤؛ وكذلك: اجتهاد وتقليد در فلسفه: ٢١٨.
- (١٦) نيايش فيلسوف: ٤٥١، من دار نشر دانشگاه علوم إسلامي رضوي، مشهد (١٣٧٧هـ.ش).
- (١٧) إنه لما يدعو إلى الأسف أن يجهل بعض فضلاء وعلماء الشيعة هذا الأصل التوحيدي الكبير (البدء بالولاية)!
- (١٨) روح مجرد: ٤١١، طبع انتشارات حكمت، طهران، ١٤١٤هـ؛ اجتهاد وتقليد در فلسفه: ٢٢١.
- (١٩) الفكر الإسلامي: ٣٠٥؛ لمحات من الفكر الفلسفي.
- (٢٠) بطبيعة الحال إن مسألة (أصالة الوجود) في تلك الحقبة لم يكن لها ذلك الحضور في المنطق

نصوص معاصرة - السنة السابعة - العدد الثامن والعشرون - خريف ٢٠١٢ م - ١٤٣٣ هـ

- والفلسفة العقلية؛ لأن هذه المسألة ليست فلسفية من الناحية الذاتية.
- (٢١) شرح مبسوط منظومه ١: ٢٢٠، انتشارات حكمت، طهران، ١٤٠٤هـ.
- (٢٢) بطبيعة الحال فإن موضوع المعرفة في الإسلام - سواء في التعاليم القرآنية أو السنة الشريفة -، وطرق حصولها أو موانعها، كانت مطروحة وفقاً للآليات والأدوات الإسلامية قبل سنوات من تسلل الفلسفة الإغريقية إلى الكيان الإسلامي. (يمكنكم ملاحظة هذا البحث في كتاب (الحياة)، الباب الأول، ضمن ٨٢ فصلاً رئيساً وفرعياً).
- (٢٣) ليس التعقل بالعقل النوري (الفطري، الكامن)، بل توظيف لعمق العقل دون ظواهره القشرية، وقد توصل الإنسان إلى هذه المرحلة السامية من (التعقل) بفضل الهداية الإسلامية.
- (٢٤) وكما أن المعرفة الإنسانية لا تنحصر بـ (المعرفة الحسية)، ولا تقف عند هذا الحد (وإن الذين توقّفوا عند هذا الحد هم بحكم الأطفال الصغار الذين لا يدركون شيئاً مما يحيط بهم)، فإنها لا تنحصر بـ (المعرفة العقلية) أيضاً. بل إن منزلة الإنسان ومقدرته العقلية الكامنة والمودعة فيه بحيث تصل إلى ما هو أرقى من ذلك، أي إنها تصل إلى مراتب (المعرفة السماوية والإلهية)، حيث يقول تعالى: ﴿تَبَيَّنَّا لَكُلِّ شَيْءٍ﴾ (النحل: ٨٩). وإن هذه المعرفة لا حدود لها. فأين العلوم البشرية - سواء منها التجريبية أو الفلسفية - من التبيان (البيان الكامل للحقيقة)؟ تعلمون أن كلمة (تبيان) مصدر من (باب التفعيل)، وتستعمل للتأكيد. (للاطلاع على اعترافات كبار الفلسفة والعلم - من القديم والحديث والشرقي والغربي - بالجهل بالحقائق راجع كتاب (الاجتهاد والتقليد في الفلسفة)، وكتاب (المعاد الجسماني في الحكمة المتعالية)).
- (٢٥) في هذا الشأن راجع: مقالة (نظرية المعرفة في فلسفة الشهيد الصدر) القيمة، مجلة الفكر الإسلامي: ٢٣٥ - ٢٩٤، تأليف: الدكتورة عائشة يوسف.
- (٢٦) لقد أبرز العلامة الطباطبائي تصريحات هامة أخرى في مؤلفاته وأعماله الأخرى بشأن البحوث الاختلافية بين الوحي والفلسفة، وهي مباحث رئيسة، ومن صميم مباني المدرسة التفكيكية. (انظر: مقالة: (آزادكي علمي) في كتاب (اجتهاد وتقليد در فلسفه)).
- (٢٧) ولسنا نتصور فيلسوفاً فاهماً للقرآن الكريم، ويقول مع ذلك بالتساوي التام بين معطيات الوحي والمعطيات الفلسفية (في مختلف الفلسفات). وعليه فإن التفكيكيين يعتقدون بقيمة (الفلسفة)، ولكن ضمن حدودها، وأما المعارف السماوية فهي من مقولة ﴿عَلَّمَهُ شَرِيدُ الْقُوَى﴾ (النجم: ٥)، ولا يمكن قياس معطيات المعارف البشرية بمعطيات الوحي أبداً، مضافاً إلى اختلاف الفلسفات الذي لا حد له.
- (٢٨) سنذكر هذا البحث بالتفصيل في كتاب (الهيئات إلهي والهيئات بشري) إن شاء الله تعالى.
- (٢٩) إن نفس اختيار السيد الشهيد لهذا العنوان يشكل دليلاً صارخاً على أنه كان يرى (مدرسة المعارف القرآنية) و(المباني السماوية) مدرسة مستقلة وغنية، ومختلفة عن سائر المدارس والتحلل الدخيلة الأخرى.
- (٣٠) المراد منها الأسئلة التي سبق للسيد الشهيد أن ذكرها في كتابه حول المباني والمسائل الأخلاقية وما إلى ذلك.
- (٣١) دستور الأخلاق: ١٧، نقلاً عن مجلة الفكر الإسلامي: ٧٠.

نصوص معاصرة - السنة السابعة - العدد الثامن والعشرون - خريف ٢٠١٢ م - ١٤٣٣ هـ

-
- (٣٢) الفكر الإسلامي: ٣٠٥.
- (٣٣) المصدر السابق: ٣٠٦، مقالة (لمحات من الفكر الفلسفي).
- (٣٤) التسمية في الأصل الفارسيّ (عقل سُرخ).
- (٣٥) إنّ من بين المسائل الهامّة في آراء السيد الشهيد مسألة (إصلاح المرجعيّة)، ولكن حيث طالت المقالة، وقد تحدّثت حول أوضاع الحوزة العلميّة مراراً وتكراراً، أرى الإحجام عن طرق هذا البحث أولى.
- (٣٦) شعاع الرسالة.
- (٣٧) لغة النمل.
- (٣٨) سجع العنقاء.
- (٣٩) نغمة ريشة جبرئيل.
- (٤٠) العقل الدامي.

(اقتصادنا) والمنهج النقدي للمذاهب الاقتصادية

قراءة موجزة

د. محمد جداري عالي (*)
ترجمة: محمد عبد الرزاق

تَهْيِدُ

كتاب (اقتصادنا) للشهيد محمد باقر الصدر هو الكتاب الذي اختصّ بنقد المذاهب الاقتصادية في العالم، ثمّ قدّم نظرية الإسلام الاقتصادية بديلاً عنها. وهنا يبرهن الشهيد الصدر بالدليل القاطع على قدرة الإسلام في تولّي مشاريع التنمية الاقتصادية في العالم الإسلامي وتسيير حياة الإنسان. إلّا أنّ التحولات الاقتصادية الحسّاسة التي طرأت على العالم كانت قد أثّرت على نظريات هذا الكتاب ومعطياته، الأمر الذي جعل من الضرورة بمكان مراجعته ونقد محتوياته.

١. (اقتصادنا) الأطروحة —

من الناحية التاريخية فإنّ الكتاب جاء كردّة فعلٍ على تنامي المدّ الشيوعي في الشرق العربيّ. لكنّ الشهيد الصدر ذهب إلى أبعد من ذلك، فصار يفكّر في وضع البديل. ويمكن تقويم الأطروحة في إطار مسألتين:

١. الزمان الذي كتبت فيه الأطروحة.
٢. التجارب العمليّة التي استفدنا منها منذ كتابة الأطروحة.

(*) باحثٌ في مجال الاقتصاد الإسلاميّ.

هنالك بعض المستجدات التي أثّرت على نتائج الكتاب، ومنها:

١. نظام القطبية الأحادية وتأثيرها على الاقتصاد العالمي.
٢. سيطرة التناقص الاقتصاديّ البحث.
٣. سيطرة التضخم الاقتصاديّ وتباطؤ النموّ على الاقتصاد الغربيّ في السّتينات والسبعينات، وحتى الثمانينات.

يكاد يكون ثلث الكتاب بمثابة نقد ودحض للنظرية الماركسيّة، التي لم يعد لها أثرٌ يذكر. وعلى الرغم من هيمنة النظام الرأسماليّ على العالم والدول الإسلاميّة في الوقت الحاضر فإنّ (اقتصادنا) لم يمنح هذا الموضوع سوى ١٢/١ من مجموع الكتاب.

٢. الاقتصاد الإسلاميّ في (اقتصادنا) —

ينطق (اقتصادنا) من فكرة أن تطبيق (الاقتصاد الإسلاميّ) لا يتحقّق لوحده، ولا بدّ أن ينضوي ضمن المنظومة الإسلاميّة المتكاملة. وهذا يتطلّب ثلاثة شروط:

- أ. نظام فكريّ إيمانيّ إسلاميّ يحظى بقبول الأفراد في صورته العامّة.
- ب. تقييم الأشياء والمواضيع في المجتمع على أساس أولويّة الإسلام وتعاليمه.
- ج. أن تكون ردود أفعال الناس العاطفيّة والنفسية إسلاميّة أيضاً.

وهنا يكمن الفرق الأساسيّ بين ما يقدّمه (اقتصادنا) في نظريّة (الاقتصاد ضمن الإسلام)، وضمن الأطر الإسلاميّة، وبين ما طرحه الآخرون في نظريّاتهم الإسلاميّة حول الموضوع.

علماً أنّ (اقتصادنا) يرفض أيّ منهج ترفيعيّ لسدّ الثغرات الاقتصاديّة إسلاميّاً في اقتصاد دول غير مسلمة. كما يرفض أيضاً تحويل (الاقتصاد الإسلاميّ) إلى علم. لكنّه يفسّر العلاقة بين الاثنين، فيقول: «يحدّد المجتمع الإسلاميّ أولاً الأهداف التي يريد التوصلُ إليها اقتصادياً، ثم بعد ذلك يتمّ تشكيل الهياكل والخطط والسياسات الاقتصاديّة التي توصله إلى تلك الأهداف، ويمكن أن تستعمل القواعد العلميّة الاقتصاديّة في هذه الخطط، وتساعد على تعيين وتقرير الحقائق الاقتصاديّة، وتساعد

في فهم الفرضيات والاحتمالات في الممارسات الاقتصادية، بغض النظر عن الأبعاد الثقافية والدينية في كل مجتمع».

٣. (اقتصادنا) والرأسمالية —

لقد اتبع (اقتصادنا) طريقة تاريخية في نقده للرأسمالية. فتتبع الخطوات التاريخية للرأسمالية واصفاً وناقداً ومهدماً الأسس الفكرية للرأسمالية. وكان النقد والتجريح هو الأقوى في (اقتصادنا) عندما تعرض إلى الأفكار الرأسمالية ومفكرها في القرن التاسع عشر، وتناول بالنقد أفكارهم الليبرالية، ولكن لم يتطرق إلى الأفكار المعاصرة الحديثة لاقتصاد السوق. أي الاقتصاد الحر المعاصر.. لكن منذ الستينيات وحتى اليوم تعرض الفكر الاقتصادي الغربي إلى تطورات وتحولات هائلة، من قبيل: ظهور التفكير النقدي، والاقتصاد التقليدي المتجدد، ونظرية التطور والنمو الاقتصادي. وعليه يمكن القول بأن (اقتصادنا) كان بحثاً نظرياً خلق في علوه في عنان السماء، ولكنه كان يحتاج إلى محاكاة الواقع العملي، سواء في دحضه النظري للرأسمالية أو تصديده للأسس النظرية للماركسية، وحتى في طرحه البديل الإسلامي، الموسوم بـ (المذهب الاقتصادي الإسلامي).

٤. التطبيقات والخطط العملية للاقتصاد الإسلامي —

هذه هي القضية التي تركت بدون توضيح، فلم تطرح رؤية واضحة عن كيفية تشكيل وإدارة المؤسسات الاقتصادية للدول في حال قيامها، ولا كيفية عمل هذه المؤسسات في حال قيام دولة تقوم على معانٍ وأسس فكرية وثقافية إسلامية. فماذا لو جاء السيد الصدر وأعاد كتابة (اقتصادنا) في ضوء أحداث العقدين الماضيين، وخاصة بعد عشرين عاماً من ظهور المجتمع الإسلامي في إيران، أو بعد عشرة أعوام من الحكم الإسلامي في السودان، أو تأسيس وتطوير عدد من المؤسسات الاقتصادية الإسلامية في عدة أقطار مسلمة، أو انهيار النظام الماركسي والسيطرة الكاملة لاقتصاد السوق؟

نصوص معاصرة - السنة السابعة - العدد الثامن والعشرون - خريف ٢٠١٢ م - ١٤٣٣ هـ

لو كان صاحب الكتاب حياً لنظر بعين الشك والريبة لإقامة مؤسسات اقتصادية إسلامية، مثل: المعارف الإسلامية، في مجتمعات غير مؤسمة؛ لأن الاقتصاد في الإسلام هو شأن سياسي، وجزء لا يتجزأ من شؤون السلطة السياسية.

٥. (اقتصادنا) بعد نصف قرن —

لا شك أن كتاب (اقتصادنا) كان كتاب زمانه، ورائداً في مجاله، ولا شك أن قسماً كبيراً منه لا زال حياً. وفي الوقت نفسه طرأت تحولات سياسية واقتصادية واسعة في العالم، والعالم الإسلامي، خلال الخمسين المنصرمة. لذا هناك فصول في (اقتصادنا) بحاجة إلى إعادة كتابة، وأخرى إلى توسعة، وأخرى إلى شرح، وأخرى إلى تحديث، وأخرى إلى تعليق، وأخرى إلى تعديل.

ليس هناك أحد يستطيع مراجعة (اقتصادنا) وتحديثه إلا إذا كان شخصية عبقرية وفذة، مثل: الشهيد محمد باقر الصدر.